الفصل الثالث

وحدة موضوع
سورة الأنبياء وآياتها

المبحث الأول: افتتاحية السورة

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ الأنبياء: ١ - ٣

بدأت السورة بمطلع قوي الضربات، يهز القلوب هزًّا، وهو يلفتها إلى الخطر القريب المحدق، وهي عنه غافلة لاهية،فقد اقترب للناس زمان حسابهم، وقرب الوقت الذي فيه يحاسبون على أعمالهم، والحال أنهم في غفلة، وهم معرضون عن الذكر الحكيم.[1] فهذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها وأن الناس في غفلة عنها، أي: لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها، حدثنا أحمد بن نصر حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم (في غفلة معرضون) قال:ـ" في الدنيا "[2]

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها.[3]

---

(١) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥١٧)

(٢) تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير ـ دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠ م ـ(٤/ ٩)

(٣) تفسير من نسمات القرآن كلمات وبيان ـ د.غسان حمدون ـ (٣٣٦)

فمطلع السورة قوي يهز الغافلين هزًا، والحساب يقترب وهم في غفلة، والآيات تعرض وهم معرضون عن الهدى، والموقف جد وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته، وكلما جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار، واستمعوا له وهم هازلون يلعبون "لاهية قلوبهم"، والقلوب هي موضع التأمل والتدبر والتفكير.[1]

فقد دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم، ونعمهم التي أنعمها الله عليهم فيها في أبدانهم وأحوالهم، ومطاعمهم، ومشاربهم، وملابسهم وغير ذلك من نعمه عندهم، ومساءلته إياهم ماذا عملوا فيها، وهل أطاعوه فيها، فانتهوا إلى أمره ونهيه في جميعها، أم عصوه فخالفوا أمره فيها؟[2]

وهم في هذه الحياة في غفلة عما يفعل الله بهم يوم القيامة، ومن ثم تركوا الفكر والاستعداد لهذا اليوم والتأهب له، جهلًا منهم بما هم لاقوه حينئذ من عظيم البلاء،وشديد الأهوال، وآثر بيان اقتراب هذا اليوم مع أن الكلام مع المشركين المنكرين للبعث، للإشارة إلى أن البعث لاريب فيه،وأن الذي يرجى بيانه ذكر ما يستتبعه من الأحوال والأهوال كالحساب الموجب للاضطراب على وجه أكيد ونهج سديد.[3]

فسورة الأنبياء ـ تطل على المشركين بنذر هذا اليوم، وهم على موعد معه، وإن كانوا في غفلة وذهول عنه.[4]

فقد بينت السورة اليوم الذي يتم فيه كشف الغطاء فينتقل فيه الخبرمن علم اليقين إلى عين اليقين وهو يوم الحساب.[5]

يا للعجب !يقترب الحساب والناس عنه غافلون، وله ناسون وتاركون.

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (١٠)

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ـ (١٧/ ٣)

(٣) تفسير المراغي ـ أحمد المراغي (١٦/ ٥)

(٤) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ(٥/ ٨٤٦)

(٥) نظم الدرر ـ للبقاعي ـ (٦٣)

شغلتهم أموالهم وأهلوهم، وهم معرضون ومضربون عما فيه خيرهم، وبه سعادتهم في الدنيا والآخرة إن هذا لعجيب!![1]

هذا تعجب من حالة الناس، وأنهم لا ينجح فيهم تذكير، ولا يرعوون إلى نذير،[2] هذا أمر في الناس جميعًا وداء أصاب العالم أجمع، ولكن الأوصاف الآتية تجعلنا نتجه بالكلام ناحية المشركين المعاصرين للنبي خاصة، فهم الذين لا يأتيهم ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون.[3]

ويجب أن يكون المراد بالناس من له مدخل في الحساب وهم المكلفون دون من لا مدخل له، ثم قال ابن عباس: المراد بالناس المشركون.وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين.[4] أي: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾ وهم في غفلة مطبقة عامة...غفلة عن كل ماهو حق، وخير،كما يدل على ذلك تنكير الغفلة، وليس هذا فحسب، بل إنهم مع غفلتهم هذه العامة الشاملة، معرضون عن كل داع يدعوهم إلى أن ينظروا إلى أنفسهم، وأن ينتبهوا من غفلتهم...والغفلة قد تكون لأمر عارض، بحيث إذا نبه الإنسان تنبه، وإذ دُعي أجاب.ولكن غفلة هؤلاء القوم،غفلةُ مستولية عليهم، آخذة بكل حواسهم ومدركاتهم﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ۝٥٧ ﴾ الكهف: ٥٧

حيث إنهم مع هذه الغفلة المستولية عليهم ـ بعيدون عن دعوات التنبيه، لا يلقونها إلا من وراء ظهورهم... فهم عنها معرضون....[5]

إنها صورة للنفوس الفارغة التي لا تعرف الجد، بل تلهو في أخطر المواقف،

---

(١) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥١٧)

(٢) تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ـ لأبي عبد الله عبد الرحمن السعدي ـ ت ١٣٧٦هـ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ ط٢ـ ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م ـ(٦٠٧).

(٣) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥١٧).

(٤) مفاتيح الغيب ـ للرازي ـ دار الكتب العالمية ـ بيروت لبنان ـ ط١ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م ـ (١١/ ١٢١).

(٥) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٤٧)

وتهزل في مواطن الجد،، وتستهتر في مواقف القداسة.فالذكر الذي يأتيهم من ربهم فيستقبلونه لاعبين، بلا وقار ولا تقديس. والنفس التي تفرغ من الجد والاحتفال والقداسة تنتهي إلى حالة من التفاهة والجدب والانحلال، فلا تصلح للنهوض بعبء، ولا الاضطلاع بواجب، ولا القيام بتكليف. وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة !

إن روح الاستهتار التي تلهو بالمقدسات روح مريضة والاستهتار غير الاحتمال، فالاحتمال قوة جادة شاعرة،والاستهتار فقدان للشعور واسترخاء.[1]

وهكذا وصف الله حال هؤلاء الكافرين أنهم غافلون ومعرضون ولا يستمعون الوحي إلا والجسم لاعب، والقلب لاه.[2]

فأخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار فقال:ـ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ أي: جديد إنزاله.[3] ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ ﴾

كما قال ابن عباس:ـ(مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرؤونه محضًا لم يشب.[4]

أي:ما يحدث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن للناس، ويذكرهم به ويعظهم إلا استمعوه، وهم لاهية قلوبهم.[5]

فما يأتيهم من عظة جديدة من عظات القرآن إلا استمعوها وهم يلعبون.[6]

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (١٠)

(٢) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٧/ ٣٤٢٧)

(٣) تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير ـ (٤/ ٩٢)

(٤) صحيح البخاري ـ باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة ـ (٥٥٨) ـ الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ـ محمد بن فتوح الحميدي ـ تحقيق: د. علي حسين البواب ـ دار ابن حزم – لبنان ـ بيروت – ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م (٢/ ٥٥) ـ مصنف عبد الرزاق ـ أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ـ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي ـ المكتب الإسلامي – بيروت ـ ١٤٠٣هـ ـ

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ الطبري ـ (١٧/ ٤)

(٦) النظم الفني للقرآن ـ عبد المتعال الصعيدي ـ (١٩٩)

أي:يهزؤون ويسخرون[1] وإنما ذكر الله تعالى ذلك بيانًا لكونهم معرضين، وذلك لأن الله تعالى يجدد لهم الذكر وقتًا فوقتًا، ويظهر لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة، ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون

فما يزيدهم ذلك إلا لعبًا واستسخارًا.[2] وبعد أن ذكر ما يظهرونه حين الاستماع من اللهو واللعب، غافلة قلوبهم عما يراد بهم[3]،ذكر ما يخفونه بقوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ والمراد إنهم كتموا التناجي قاصدين، وبالغوا في إخفائه ليبحثوا عما يطفئون به نور الله ويبطلون به رسالة رسول الله !ولكن هيهات لهم ذلك![4]

وإسرار النجوى:ـ مبالغتهم في إخفاء ما تناجوا به من منكر القول، حتى يحكموا كيدهم، ويصلوا إلى رأي يجتمعون عليه، ثم يطلعون على الناس به،إنهم يتآمرون فيما بينهم، ليتفقوا على الكيد الذي يكيدون به لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولآيات الله.[5]

والنجوى هي اسم من التناجي، ولا يكون إلا خفية ومعنى قوله تعالى:ـ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ﴾ أنهم بالغوا في إخفائها وجعلوها بحيث لا يفطن أحد إلى تناجيهم.[6] فقد أسر هؤلاء الناس الذين اقتربت الساعة منهم، وهم في غفلة معرضون، لاهية قلوبهم، النجوى بينهم، قول:ـ وأظهروا المناجاة بينهم فقالوا:ـ هل هذا الذي يزعم أنه رسول من الله إليكم ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ .

---

(١) بحر العلوم ـ أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي ـ تحقيق:.محمود مطرجي ـ دار الفكر – بيروت ـ (٢/ ٤١٩)

(٢) مفاتيح الغيب ـ للرازي ـ (١١/ ١٢١)

(٣) زاد المسير في علم التفسير ـ عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ـ المكتب الإسلامي – بيروت ـ ط٣ـ ١٤٠٤ـ (٥/ ٣٢٩)

(٤) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥١٧)

(٥) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٤٨)

(٥) مفاتيح الغيب ـ للرازي ـ (١١/ ١٢٢)

(٦) ينظر:ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ للطبري ـ (١٧/ ٤)

يقولون:ـ هل هو إلا إنسان مثلكم في صوركم وخلقكم ؟ يعنون بذلك محمدًا صلى الله عليه وسلم.[1]

فقد بين ما تناجوا به فقال:ـ ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

أي: قالوا في تناجيهم متعجبين من دعوة النبوة، هل هذا الذي أتاكم بهذا الذكر إلا بشر مثلكم في خلقه وأخلاقه، يأكل كما تأكلون ويشرب كما تشربون، ويموت كما تموتون، فكيف يختص دونكم بالرسالة ؟

فهم على موت قلوبهم وفراغها من الحياة، لم يكونوا يملكون أنفسهم من أن تتزلزل بهذا القرآن، فكانوا يلجؤون في مقاومة تأثيره الطاغي إلى التعللات، يقولون:ـ إنَّ محمدًا بشر.

فكيف تؤمنون لبشر مثلكم ؟ ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ وإن ما جاء به السحر، فكيف تجيؤون للسحر وتنقادون له وفيكم عيون وأنتم تبصرون؟[2] وهل يليق بعاقل أن يرى من يدعوه إلى ختله، والاحتيال عليه، ثم يأتيه طائعًا؟هكذا يديرون هذا اللغو، ويستمر ون به؟[3]

ما تضمنته الافتتاحية من عبر وعظات:ـ

١ـ إنه قد دنا وقت الساعة وهم غافلون عن حسابهم، ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم، مع أن قضية العقل تقضي بجزاء المحسن والمسيء.[4]

٢ـ إنما ذكر تعالى هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكون أقرب إلى تلافي الذنوب والتحرّر منها خوفاً من ذلك.

٣ـ إنما لم يعين الوقت لأجل أن كتمانه أصلح، كما أن كتمان وقت الموت أصلح.

٤ـ الإنذار بقرب الساعة مع غفلتهم عنها.

---

(١) ينظر:ـ تفسير المراغي ـ أحمد المراغي ـ (١٧/ ٦)

(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (١١)

(٣) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٤٨)

(٤) تفسير المراغي ـ أحمد المراغي ـ (١٦/ ٥)

٥ـ هؤلاء الذي يصفهم القرآن الكريم كانوا يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستورًا للحياة، ومنهاجاً للعمل، وقانونًا للتعامل باللعب.ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة، وأمثال هؤلاء موجودون في كل زمان، فحيثما خلت الروح من الجد والاحتفال والقداسة صارت إلى هذه الصورة المريضة الشائهة التي يرسمها القرآن، التي تحيل الحياة كلها إلى هزل فارغ، لا هدف له ولا قوام.(١)

٦ـ الفائدة في تسمية يوم القيامة بالحساب أن الحساب هو الكاشف عن حال المرء فالخوف من ذكره أعظم.(٢)

٧ـ كثير من أخلاق الكافرين يمكن أن يُبْتَلَى بها المؤمنون، ومن ثم فإن على المسلم أن يلاحظ نفسه وقلبه، وإذا مرَّ على خلق للكافرين فتَّش في نفسه وسلوكه أن يكون متخلقًا به وهو يشير، بأن هذه الصورة ـ صورة استماع الوحي والجسم يلعب والقلب لاه صورة نراها كثيرًا في المقاهي والنوادي والمجالس، يشترك فيها الكافرون وبعض المؤمنين.(٣)

٨ـ في هذا ذم لأولئك الكفار، وزجر لغيرهم عن مثله، فالانتفاع بما يسمع لا يكون إلا بما يرجع إلى القلب من تدبر وتفكر، وإلا حصل مجرد الاستماع الذي تشارك البهيمة فيه الإنسان.(٤)

المطلب الأول....دعوى المشركين والرد عليهم وإنذارهم وتهديدهم

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ١١)
(٢) مفاتيح الغيب ـ للرازي ـ (١١/ ١٢١)
(٣) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٧/ ٣٤٢٨)
(٤) تفسير المراغي ـ أحمد المراغي ـ (١٦/ ٥)

وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الأنبياء: ٤ - ٢٠

بعد ما بينت لنا الآيات في افتتاحية السورة:ـ

ما كان عليه المشركون من غفلة ولهو وإعراض[1] فقد بينت أن القلوب ميتة مغلقة خامدة، التي تكفن موتها باللهو، وتواري خمودها بالاستهتار، ولا تتأثر بالذكر لأنها خاوية من مقومات الحياة."[2]

ووضحت دعواهم فدعوى المشركين واضحة من خلال الآيات وهي الطعن في نبوته بأمرين:ـ

١ـ أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر مثلهم واعتقدوا أن الرسول لا يكون إلا ملكًا.

٢ـ أن الذي أتى به سحر.

وكلا الطعنين فاسدان.

أما الأول:ـ فلأن النبوة تقف صحتها على المعجزات والدلائل لا على الصور، إذ لو بعث الملك إليهم لما علم كونه نبيًا لصورته، وإنما كان يعلم بالعلم فإذا ظهر

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ـ جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر ـ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ـ ط٥ ـ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م ـ (٣/ ٣٩٦)

(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ١١)

ذلك على من هو بشر، فيجب أن يكون المبعوث إلى البشر بشرًا، لأن المرء إلى القبول من أشكاله أقرب وهو به آنس.

أما الثاني:ـ وهو أن ما أتى به الرسول عليه السلام سحرٌ،وأنهم يرون كونه سحرًا فجهل أيضًا، لأن كل ماأتى به الرسول من القرآن وغيره ظاهر الحال لا تمويه فيه ولا تلبيس فيه، فقد كان عليه السلام يتحداهم بالقرآن حالاً بعد حال مدة من الزمان، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، وكانوا في نهاية الحرص على إبطال أمره، وأقوى الأمور في إبطال أمره معارضة القرآن فلو قدروا على المعارضة لامتناع أن لا يأتوا بها، لأن الفعل عند توافر الدواعي وارتفاع الصارف واجب الوقوع، فلما لم يأتوا بها دلنا ذلك على أنه في نفسه معجزة، وأنهم عرفوا حاله، فكيف يجوز أن يقال إنه سحر والحال على ما ذكرناه؟ وكل ذلك يدل على أنهم كانوا يموهون على ضعفائهم بمثل هذا القول، وإن كانوا فيه مكابرين.[1]

ولكن الله أطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على ما تناجوا به، وقالوه في السر العميق، وأمره أن يقول لهم:ـ ربي يعلم القول مطلقًا سواء جهرتم به أو أسررتم، وسواء كان في السماء أم في الأرض فإنه يعلم السر وأخفى، وهو السميع لكل ما يسمع العليم بطوايا النفوس وخطرات القلوب.[2]

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي: الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السماوات والأرض وقوله ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

أي:السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعيد.[3]

ولقد حاروا كيف يصفون هذا القرآن وكيف يتقونه.

فقالوا:ـ إنه سحر.

---

(١) مفاتيح الغيب ـ للرازي ـ (١١/ ١٢٣)

(٢) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥١٨)

(٣) تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ (٤/ ٩٢)

وقالوا:ـ إنه أحلام مختلطة يراها محمد ويرويها.

وقالوا:ـ إنه افتراه وزعم أنه وحي من عند الله[1]:ـ

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾

فهذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن وحيرتهم وضلالهم عنه[2] إنهم ما صدقوا بحكمة هذا القرآن، ولا أقروا أنه من عند الله، ولا أنه وحي أوحاه الله إليه، بل قالوا هذه المقالات.

وهذا الاضطراب والتردد في القول دأب المحجوج المغلوب على أمره، لا يتردد إلا بين باطل وأبطل منه، ويتذبذب بين فاسد وأفسد منه. وقد ذكرت هذه المقالات على هذا الوضع، إشارة إلى ترقيها في الفساد، فإن كونها سحرًا أقرب من كونها أضغاث أحلام، بخلاف تخاليط الكلام التي لا تضبط، ولا شبه لها بهذا النظم البديع، وادعاء كونها مفتريات أبعد وأبعد، ولأنه عليه الصلاة والسلام قد شُهِرَ بالأمانة والصدق ـ والقرآن ليس بشعر، فهم أعرف الناس بالفرق بين المنظوم والمنثور، وهم يعلمون من مخالطة النبي على مدى أربعين سنة أنه لا يتسهل له الشعر وإن أراده.[3]

ثم انتقلوا إلى ناحية أخرى باقتراحهم على نبيّنا أن يأتيهم بآية كآيات الرسل قبله[4]، كما أرسل موسى بالعصا، وصالح بالناقة، ولقد كان سؤالهم هذا سؤال تعنت، ويعلم الله أنهم لا يؤمنون ولو نزل عليهم ما طلبوا.[5] وتبين الآيات أن الخوارق قد جاءت من قبل، فلم يؤمن بها من جاءتهم، فحل بهم الهلاك، وفقًا لسنة الله التي لا تتخلف في إهلاك من يكذبون بالخوارق[6]

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (١٧/ ١٢)

(٢) تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير ـ (٤/ ٩٢)

(٣) تفسير المراغي ـ أحمد المراغي ـ(١٧/ ٧)

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ـ محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي ـ دار الفكر ـ بيروت – لبنان ـ١٤١٥ هـ– ١٩٩٥ م ـ(٢٢/ ١٣٦)

(٥) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥١٨)

(٦) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (١٧/ ١٢)

وقد اقترحت الأمم السالفة الآيات على رُسلها، فأعطوا ما اقترحوا، فلم يؤمنوا، فأهلكناهم، فكيف يؤمن هؤلاء، وهم أعتى منهم ؟[1] ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴾ ولما أشار سبحانه إلى فساد طعنهم بما جعله هباء منثورًا، وتضمن قولهم الذي سببوه عنه القرار بالرسل البشريين وآياتهم، أتبعه بيان ما عليهم فيه، فبين أولًا أنَّ الآيات تكون سببًا للهلاك،[2] لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات، أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوا، وأعطوا ما اقترحوا، مع كونهم أعتى منهم وأطغى. وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم. إذ لو أتى به ولم يؤمنوا، استوجبوا عذاب الاستئصال، كمن قبلهم. كما أن رقي النوع البشري في العهد النبويّ،اقتضى أن تكون الآية عقلية، لا كونية.[3]، ولقد تكررت الآيات، وتكرر التكذيب بها، وتكرر كذلك إهلاك المكذبين، فما بال هؤلاء سيؤمنون بالخارقة لو جاءتهم، وهم ليسوا سوى بشر كهؤلاء الهالكين ![4] ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ ثم تبين لنا الآيات حكمة الله أن يكون الرسل بشرًا:ـ" ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ فقد اقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر، يتلقون الوحي فيدعون به الناس.وما كان الرسل من قبل إلا رجالًا ذوي أجساد، وما جعل الله لهم أجسادًا ثم جعلهم لا يأكلون الطعام، فأكل الطعام من مقتضيات الجسدية، والجسدية من مقتضيات البشرية.

وهم بحكم أنهم بشر مخلوقون لم يكونوا خالدين.هذه هي سنة الله المطردة فليسألوا أهل الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل.إن كانوا هم لا يعلمون.لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر، فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم.

---

(١) البحر المديد ـ أحمد بن محمد بن المهدي الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط٢ـ ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م (٤/ ٣٢٥)

(٢) نظم الدرر ـ البقاعي ـ(٦٨)

(٣) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ـ محمد جمال الدين القاسمي ـ (١٠/ ٥٢٤)

(٤) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (١٧/ ١٢)

وسلوكهم العملي نموذجٌ حيٌ لما يدعون إليه الناس، فالكلمة الحية الواقعية هي التي تؤثر وتهدي، لأن الناس يرونها ممثلة في شخص مترجمة إلى حياة.[1] أي: أن هؤلاء الرسل، مع أنهم بشر، فإن اختيارهم للرسالة، لم يغير شيئًا من بشريتهم.[2]

إلا أن الله اصطفاه واختاره لرسالته وأنزل عليه دستوره وكتابه الذي يخرج أمته من الظلمات إلى النور.[3]

تلك سنة الله في اختيار الرسل، ومثلها سنته في إنجائهم ومن معهم، وإهلاك المسرفين الظالمين المكذبين:ـ ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ المراد منه أنه تقدم وعده جل جلاله بأنه إنما يهلك بعذاب الاستئصال من كذب الرسل، دون نفس الرسل ودون من صدق بهم، وجعل الوفاء بما وعد صدقًا من حيث يكشف عن الصدق ومعنى ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

أي: بعذاب الاستئصال وليس المراد عذاب الآخرة، لأنه إخبار عما مضى وتقدم.[4]

وهذا يبين لنا أنه كان للرسل مع ربهم وعد صريح بنجاتهم ومن آمن معهم، وهلاك الكفار والعصاة من قومهم.

هذه السنة يخوف الله بها المشركين الذين كانوا يواجهون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإسراف عليه، وتكذيبه، وإيذائه والمؤمنين معه.

وينبههم إلى أن رحمة بهم لم يرسل إليهم بخارقة مادية، يتبعها هلاكهم، إذاهم كذبوا بها كما كذب من قبلهم.

إنما أرسل إليهم بكتاب يشرفهم لأنه بلغتهم، ويقوِّم حياتهم، ويخلق منهم أمة ذات سيادة في الأرض وذكر في الناس، وهو مفتوح للعقول تتدبره، وترتفع به في

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (١٧/ ١٣)
(٢) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٥١)
(٣) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥)
(٤) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٢٥)

سلم البشرية[1] ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ وهنا تنويه بالأمة العربية، ورفع لقدرها، باختيارها من بين الأمم لتكون الوجه الذي تلتقي به رسالة الإسلام، والراية التي يجتمع عليها الداخلون في دين الله، وليكون لسانها هو اللسان الذي يحمل كلمات الله، ويكتب له الخلود بخلودها.[2]

أي: لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب كتابًا عظيمًا مجيدًا لا يماثله كتاب فيه شرفكم وعزكم لأنه بلغتكم.[3]

وما يملك العرب من زاد يقدمونه للبشرية سوى هذا الزاد. وما يملكون من فكرة يقدمونها للإنسانية سوى هذه الفكرة، فإن تقدموا للبشرية بكتابهم ذاك عرفتهم وذكرتهم ورفعتهم، لأنها تجد عندهم ما تنتفع به، فأما إذا تقدموا إليها عربًا فحسب بجنسية العرب، فما هم ؟وما ذاك ؟ وما قيمة هذا النسب بغير هذا الكتاب وهذه العقيدة لم تعرفهم لأنهم عرب فحسب.

فذلك لا يساوي شيئًا في تاريخ البشرية، ولا مدلول له في معجم الحضارة!

إنما عرفتهم لأنهم يحملون حضارة الإسلام ومثله وفكرته.وهذا أمر له مدلوله في تاريخ البشرية ومعجم الحضارة! ذلك ما كان يشير إليه القرآن الكريم، وهو يقول للمشركين، الذين كانوا يواجهون كل جديد يأتيهم منه باللهو والإعراض والغفلة والتكذيب.[4]

فقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكركم، وشرفكم وفيه ذكر أمور دنياكم ودينكم وأحكام شرعكم، وجزاء أعمالكم أفلا تعقلون ؟وتتدبرون أموركم.

وبعد ما بينت لنا الآيات دعوى المشركين في تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم بدأت بالنذر والتهديد لهم كما حصل للأمم السابقة من عذاب استئصال:ـ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ وكثير

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ١٤)

(٢) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٥٢)

(٣) صفوة التفاسير ـ محمد الصابوني ـ ط٥ـ دار القلم ـ بيروت ـ (٢/ ٢٥٦)

(٤) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (١٧/ ١٤ـ ١٥)

من القرى قصمناها، وأهلكنا أهلها، لأنها كانت ظالمة لنفسها بالكفر وارتكاب الإثم، وأنشأنا بعدها قومًا آخرين.[1]

والقصم هنا واردة عن غضب عظيم، لأن القصم كسر بين تلاؤم الأجزاء.[2]

أي: جعلناها كالشيء اليابس الذي كسر فتباينت أجزاؤه، أو الإناء الذي فت فانكب ماؤه، وأشار بالقصم الذي هو أفظع الكسر لأنها كانت باجتماع الكلمة وشدة الشكيمة كالحجر الرخام في الصلابة والقوة.[3]

والقصم أشد حركات القطع.وجرسها اللفظي يصور معناها، ويلقي ظل الشدة والعنف والتحطيم والقضاء الحاسم على القرى التي كانت ظالمة.فإذا هي مدمرة محطمة.[4]

فكثيرًا من أهل القرى أهلكناهم إهلاكًا شديدًا مبالغًا فيه.[5]

وأحدثنا بعد ما أهلكنا هؤلاء الظلمة من أهل هذه القرى التي أهلكناها بظلمها قومًا آخرين سواهم.

أي: فلما أحسوا بأسنا ورأوا عذابنا الشديد إذا هم يهربون ويفرون مسرعين يركضون دوابهم ويستحثونها، أي: لما علموا شدة عذابنا وبطشنا علم حس مشاهدة ركضوا في ديارهم، والركض ضرب الدابة بالرجل، ومنه قوله تعالى:ـ ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ ص: ٤٢

فيجوز أن يكونوا ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب، ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين.[6]

---

(١) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٢١)
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ البيضاوي ـ ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ـ ٢٠٠١م ـ (٢/ ٦٦٢)
(٣) نظم الدرر ـ البقاعي ـ (٧١)
(٤) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ١٥)
(٥) البحر المحيط ـ لأبي حيان ـ (٧/ ٤١٢)
(٦) مفاتيح الغيب ـ للرازي ـ (١١/ ١٢٦)

فلما أراد الله أن يأخذ الظالمين بظلمهم، ساق إليهم بأسه وعذابه. فلما استشعروا وقوع العذاب بهم، بما طلع عليهم من مقدماته ونذره، ذعروا، وأخذوا يركضون، أي: يجرون مسرعين في فزع واضطراب، فرارًا من تلك القرية، وخوفًا من أن ينهار عليهم بنيانها، أو تخسف بهم أرضها.[1]

عندئذ يتلقون التهكم المرير:ـ

﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ لا تركضوا من قريتكم، وعودوا إلى متاعكم الهنيء وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح..عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيم أنفقتموه ؟

وما عاد هنالك مجال لسؤال ولا لجواب، إنما هو التهكم والاستهزاء ! عند ذلك يفيقون فيشعرون بأن لا مفر ولا مهرب من بأس الله المحيط، وأنه لا ينفعهم ركض، ولا ينقذهم فرار.[2]

وفي قوله تعالى:ـ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أنهم بمشاعرهم التي يداعبها الأمل بالنجاة في هذا الركض الذي يركضونه.

فهم مسئولون لا محالة عما كانوا فيه من ضلال، واستغراق في الترف الذي أذهلهم عن النظر في أنفسهم، وطلب النجاة قبل وقوع البلاء بهم، وقد جاء الإخبار بسؤالهم في صورة الرجاء، الذي يمكن أن يقع أو لا يقع. وذلك لتتحرك في صدورهم مشاعر الأمل في النجاة، ثم إذا هم تحت ضربات البلاء، وقد أحاط بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم..فيا لخيبة الأمل!

لقد برقت بوارقه، ثم انطفأت، فإذاهم في ظلمات يعمهون.[3]

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ الأنبياء: ١٤ ـ ١٥

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٥٤)

(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ١٦)

(٣) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٥٤ـ٨٥٥)

أي قالوا:ـ يا هلاكنا ودمارنا إنا كنا ظالمين بالإشراك وتكذيب الرسل.فاعترفوا وندموا حين لا ينفعهم الندم. ومازالت تلك الكلمات التي قالوها يكررونها ويردّدونها، حتى أهلكناهم بالعذاب وتركناهم مثل الحصيد موتى كالزرع المحصود بالمناجل.[1] فهكذا أصبحوا وجهًا لوجه مع عذاب الله النازل بهم، لا يملكون معه إلا التنادي بالويل، وإلا أن يندبوا حظهم المنكود، ويرجعوا على أنفسهم.. وهكذا تتعالى صيحاتهم، ويعلو صراخهم، إلى أن تخمد أنفاسهم، ويصبحوا جثثًا هامدة، كحصاد هشيم تذروه الرياح.[2]

وياله من حصيدٍ آدميٍّ، لا حركةَ فيه ولا حياةَ، وكان منذ لحظة يموج بالحركة، وتضطرب فيه الحياة![3]

ـ المناسبة بين الافتتاحية والمقطع الأول:ـ

بدأت السورة ببيان أن الناس غافلون عن الحكمة من خلقهم، وذلك بسبب انشغالهم بالدنيا عن محاسبة الله لهم، ومن علامات غفلتهم:ـ أنه ما تأتيهم آية من آيات الله القرآنية، لتذكرهم بالله إلا استمعوا إليها وهم يلعبون، غير معتبرين، ساهية وغافلة قلوبهم، بل تناجوا بالتكذيب قائلين: هل هذا الذي يزعم أنه رسول إلا بشر مثلنا ؟

إن الذي جاء به هو السحر أفتقبلون السحر، وأنتم تعلمون ؟

وناسب ذلك:ـ

الرد عليهم، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم:ـ إن ربي عالم بما تناجيتم به، فإنه لايخفى عليه شيء مما يقال في الأرض، ولا في السماء، فهو السميع لأقوال عباده، والعليم بأفعالهم.[4]

---

(١) صفوة التفاسير ـ محمد علي الصابوني ـ (٢/ ٢٥٧)

(٢) ينظر: ـ التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٥٥)

(٣) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ١٦)

(٤) مصحف دار الصحابة في تناسب وتناسق الآيات ـ الشيخ مجدي فتحي السيد ـ دار الصحابة للتراث بطنطا ـ مصر ـ ط١ـ (٣٢٢/ ٣٢٣)

وقد ردّ الله عز وجل في هذه المجموعة على أقوال الكافرين واقتراحاتهم، ووعظهم وذكّرهم، بتسلسل واضح رأيناه أثناء العرض والتفسير، وقد رأينا فيما مّر معنا نموذجًا على كون هذا القرآن، (ذكرًا) وهو المعنى الذي ورد في الآية الثانية من السورة ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ فالقرآن ذكر يذكّر بالله ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ والقرآن ذكر يذكّر الإنسان ويعظه ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾ والقرآن ذكر إذ يقوّم باطل الإنسان بالحجة القاطعة، ومع كون القرآن هكذا كله، فإن الكافرين يستمعون إليه وهم يلعبون لاهية قلوبهم..[1]

فوائد وعظات وعبر:ـ

١ـ إن الله سبحانه وتعالى كلما جدد للكفار الذكر وقتاً فوقتًا، وكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون، ما زادهم ذلك إلا سخرية واستهزاء.[2]

٢ـ ندرك حقيقة الحالة الكفرية للإنسان الذي لا ينفع معه الإنذار، إنه الإنسان الذي يعتبر الوحي أضغاث أحلام، وأنه مكذوب، وأن الرسول إنسان عاطفي غير موضوعي، إنَّ هذا النوع من الكفار هم الذين يطلبون الآيات متعنتين، وهم مستغرقون في الغفلة والإعراض واللعب وسهو القلب، والتآمر على الرسالة والرسول، هذه هي أعراض الكفر الكامل الذي لا ينفع معه إنذار.[3]

٣ـ معجزة القرآن معجزة مفتوحة للأجيال، وليست كالخوارق المادية، التي تنقضي في جيل واحد، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل.

وقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا، فلم يكن لهم قبله ذكر، ولم يكن معهم ما يعطونه للبشرية فتعرفه لهم وتذكرهم به، ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب، وقادوا به البشرية قرونًا طويلة، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب، حتى إذا تخلوا عنه تخلت

---

(١) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٣٤٣٧)

(٢) تفسير المراغي ـ أحمد المراغي ـ (١٧/ ١٧/ ٥)

(٣) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٧/ ٣٤٢٩)

عنهم البشرية، وانحط فيها ذكرهم، وصاروا ذيلًا للقافلة يتخطفهم الناس، وكانوا بكتابهم يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون.[1]

٤ـ سنة الله الجارية فيما يخوف الله بها المشركين الذين كانوا يواجهون الرسول صلى الله عليه وسلم ـ بالإسراف عليه، وتكذيبه، وإيذائه والمؤمنين معه، والإخبار بأن الله أهلك كثيراً من الأمم المكذبة لرسلها وأنشأ بعدهم أقوامًا آخرين.

المطلب الثاني: الرَّبْطُ بين الحَقِّ والجِدِّ في الدعوة ـ نظام الكون ـ بين عقيدة التوحيد ونواميس الوجود

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الأنبياء: ١٦ ــ ٢٠

هنا يربط السياق بين العقيدة التي سبق الحديث عنها، وسننها التي تجري عليها، وتأخذ المكذبين بها، يربط بينها وبين الحق الكبير والجد الأصيل، اللذين يقوم بهما الكون كله،ويتلبس بهما خلق السماوات والأرض في صميمه.

فإذا كان المشركون يستقبلون القرآن الكريم كلما جاءهم منه جديد باللعب واللهو، غافلين عما في الأمر من حق وجد، وإذا كانوا يغفلون عن يوم الحساب القريب، وعما ينتظر المكذبين المستهزئين....فإن سنة الله مطردة نافذة مرتبطة بالحق الكبير والجد الأصيل.[2]

فتبين لنا الآيات:ـ

ما خلق السماوات المرفوعة، والأرض الموضوعة، وما بينهما من عجائب الخلق ليس لِلَّهوِ واللعب كما يفعل بعض الخلق في دنياه، ولكنها آيات شاهدة على حكمة الحكيم، وقدرة القادر العليم، وعدل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وكانت ميادين

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ١٤ـ١٥)

(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ١٧)

للتفكير السليم، والنظر الصحيح الذي يوصل إلى العبادة الخالصة لخالقهما، وكانت من نعم الله على خلقه.[1]

فالله سبحانه وتعالى ما خلق شيئًا عبثًا ولهوًا، فالسماء والأرض وما بينهما من كائنات وعوالم، إنما خلقت لحكمة مرادة لله سبحانه وتعالى، ولقصد حكيم قصده من خلقها.

وكذلك الناس، لم يخلقوا عبثًا،وإنما خلقوا ليعمروا الأرض، ويعبدوا الله فيها، ثم يردوا إلى الله، ليحاسبوا على ما عملوا، وليلقى المحسن منهم جزاء إحسانه، والمسيء جزاء إساءته.[2]

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ المؤمنون: ١١٥

وإنما خلقهما دلالة على قدرته ووحدانيته ليعتبر الناس على وجود الخالق المدبر.

فالجد أصيل في طبيعة هذا الكون أصيل في تدبيره، أصيل في العقيدة التي أرادها الله للناس، أصيل في الحساب الذي يأخذهم به بعد الممات.[3]

ولو أراد الله أن يتخذ لهواً لا تخذه من لدنه، ومن جهة قدرته، ولكنه لم يرد إلا الحكمة والصواب فيما خلق وفعل، وما كان سبحانه وتعالى فاعل اللهو واللعب أبدًا. ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ﴾ قال ابن عباس:ـ هذا ردّ على من قال اتخذ الله ولدًا، والمعنى لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به من زوجة أو ولد، ﴿ لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ﴾

أي: لاتخذناه من عندنا من الحور العين أو الملائكة. ﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

أي لو أردنا فعل ذلك لاتخذناه من لدنا ولكنه منافٍ للحكمة فلم نفعله.[4]

أما قوله تعالى:ـ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾

---

(١) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٢١ـ ٥٢٢)

(٢) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٥٥ـ ٨٥٦)

(٣) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ١٧)

(٤) صفوة التفاسير ـ الصابوني ـ (٢/ ٢٥٧)

فإنَّ قوله " بَلْ" إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته، كأنه قال:سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب، بل من موجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد، وندحض الباطل بالحق، واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرًا لإبطاله، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلًا قذف به على جرم رخو فدمغه.[1] فالله سبحانه وتعالى يضرب الباطل بالحق، ويدمغه به، فإذا هو زاهق..

أي: ذاهب ومنهزم..

وهكذا آيات الله وما تحمل من حق، إنها تلتقي بما يختلقه المبطلون من ضلالات وأباطيل، فتدمغها وتزهقها،وتخنق أنفاسها، وإذا تلك المفتريات والأباطيل، دخان وهباء،لا يمسك أصحابها منها بشيء،..والمثل المحسوس في هذا، عصا موسى، وعِصيُّ السحرة.. إن العصا، حق من الحق وعصيّ السحرة باطل من أباطيل، فلما التقت العصا بالعصيّ ألقت بها في غياهب الظلمات.. فلم يجد أصحابها لها ظلًا.[2] ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ الأعراف: ١١٧ - ١١٨

وفي الآية إيماء إلى علو الحق وتسفل الباطل ـ وأن جانب الأول باق ـ والثاني فان. ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

أي: مما تصفونه به من اتخاذ الولد ونحوه، مما تتنزه عظمته عنه.[3] وفيه تهديد للمشركين، ووعيد لهم بالويل والهلاك، الذي يأتيهم من هذه الأباطيل التي يعيشون معها، بما يصفون به الله سبحانه وتعالى من صفات لا تليق بجلالته وعظمته، كنسبتهم الملائكة إلى الله وقولهم إنهم بنات الله[4].

---

(١) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٢٧ـ١٢٨)

(٢) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٥٦ـ٨٥٧)

(٣) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ـ محمد جمال الدين القاسمي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ (١٠/ ٤٢٥٦)

(٤) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٥٧)

أي: العذاب في الآخرة بسبب وصفكم الله بما لا يجوز عليه، وقيل:ـ الويل واد في جهنم، وهو وعيد لقريش بأن لهم من العذاب مثل الذي لأولئك.[1]

ولما حكى كلام الطاعنين في النبوات وأجاب عنها، وبين أن غرضهم من تلك المطاعن إنما هو التمرد والعناد ـ بين في هذه الآية أنه غني عن طاعتهم، لأنه هو الملك لجميع المخلوقات، والملائكة على جلالة قدرهم مطيعون له خائفون منه، فأجدر بالبشر على ضعفهم أن يعبدوه، فقال:ـ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الأنبياء: ١٩

أي: وله تعالى جميع المخلوقات خلقًا وملكًا وتدبيرًا وتصرفًا وإحياء وإماتة وتعذيبًا وإثابة، دون أن يكون لأحد في ذلك سلطان لا استغلالًا ولا استتباعًا.[2]

أي: إن كل المكلفين في السماء والأرض هم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم، فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه.[3]

وكيف يجوز أن يتخذ الله لهوًا، وله ملك جميع من في السماوات والأرض، والذين عنده من خلقه لا يستنكفون عن عبادتهم إياه ولا يعيون من طول عبادتهم له، وقد علمتم أنه لا يستعبد والد والده ولا صاحبته، وكل من في السماوات والأرض عبيده، فَأَنَّى يكون له صاحبة وولد!يقول:ـ أولا تتفكرون فيما تفترون من الذب على ربكم؟[4]

فهو ـ سبحانه ـ المالك لمن في السماوات والأرض، من عوالم من الذرة، وما دون الذرة، إلى الكواكب في مساراتها، والنجوم في أفلاكها إلى الملائكة الذين يعبدونه وهو سبحانه المتصرف في هذه الموجودات، الموجه لها، المقدّر لوضعها الذي تأخذه في هذا الوجود.

وإذا كان هذا سلطان الله، وتلك قدرته الآخذة بناصية كل شيء، فإنه من غير

---

(١) فتح القدير ـ محمد علي الشوكاني ـ (٣/ ٤٧٤)
(٢) تفسير المراغي ـ أحمد المراغي ـ (١٧/ ١٦)
(٣) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٢٨)
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ الطبري ـ (١٧/ ١٦)

المعقول أن يكون شيء من خلقه ذا سلطان معه، أو خارجًا عن سلطانه.والملائكة، الذين هم عند الله، يدينون له بالولاء ويتقربون إليه بالعبادة.[1]

﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وهنا تعرض لنا الآيات نموذجًا من نماذج الطاعة والعبادة وهم الملائكة، في مقابل عصيان وإعراض هؤلاء البشر، والملائكة أقرب إلى الله، ومع هذا فهم دائبون على طاعته وعبادته، لا يفترون ولا يقصرون.[2]

ومن عنده من الملائكة لا يستكبرون عن عبادته، والعندية عندية مكانة وتشريف فكيف بكم تستكبرون عن عبادته ؟

والملائكة همهم العبادة ليلًا ونهارًا،لا يستكبرون ولا يعيون، ولا يتعبون، خلقوا هكذا، ليس فيهم داعية من دواعي الشر، وهم لا يفترون.[3]

فحياتهم كلها عبادة وتسبيح بالليل والنهار دون انقطاع ولا فتور.

المناسبة بين المقطع وما قبله :.

لما بين الله أن إهلاك أهل القرى لأجل تكذيبهم، ناسب أن يتبعه الله بما يدل على أنه فعل ذلك عدلًا منه، ومجازاةً على ما فعلوا، فالله تعالى ما خلق السماوات والأرض عبثًا أو باطلًا، بل لبيان قدرة خالقهما، وعلو عظمته، وجلال حكمته، فإن العبث والسدى ينافي حكمته.[4]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الأنبياء: ١٦ - ١٨

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ١٨)

(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ١٨)

(٣) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ(٢/ ٥٢٢)

(٤) مصحف دار الصحابة ـ الشيخ مجدي فتحي السيد ـ (٣٢٣)

في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان:ـ

الأول:ـ أنه تعالى لما بين إهلاك أهل القرية لأجل تكذيبهم، أتبعه بما يدل على أن فعل ذلك عَدْلٌ منه ومجازاةٌ على ما فعلوا فقال:ـ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ أي: وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع، وما بينهما من العجائب والغرائب كما تسوي الجبابرة سقوفهم وفرشهم للهو واللعب، وإنما سويناها لفوائد دينية ودنيوية. أما الدينية فليتفكر المتفكرون فيها على ما قال الله تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ آل عمران: ١٩١

وأما الدنيوية فلما يتعلق بها من المنافع التي لا تعد ولا تحصى وهذا كقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ص: ٢٧

وقوله: ﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ الدخان: ٣٩

الثاني:ـ أن الغرض منه تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والرد على منكريه لأنه أظهر المعجزة عليه، فإن كان محمد كاذبًا كان إظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفي عنه. وإن كان صادقًا فهو المطلوب، وحينئذ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن.(١)

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان:

الأول:ـ أنه تعالى لما نفى اللعب عن نفسه، ونفي اللعب لا يصح إلا بنفي الحاجة، ونفي الحاجة لا يصح إلا بالقدرة التامة، لا جرم عقب تلك الآية بقوله:ـ

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة.

الثاني:ـ وهو الأقرب أنه تعالى لما حكى كلام الطاعنين في النبوات، وأجاب عنها، وبين أن غرضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد، بين في هذه الآية أنه تعالى منزه عن طاعتهم، لأنه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات، ولأجل أن

---

(١) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٢٨)

الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فالبشر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه.[1]

فمن خلال ما سبق يتبين لنا:ـ

أن علة إعراض الكافرين وغفلتهم هي جهلهم بالله وفساد تصوراتهم عن حكمة خلقه السماوات والأرض، إنهم يجهلون أن الله لايلهو ولا يعبث، ويجهلون جلاله وعظمته، ويجهلون أن من شأنه وسنّته أن يبطل الباطل ويهلكه، وأن من شأنه أن يُعبد ويقدس، ولو أنهم عقلوا هذه المعاني ما أعرضوا ولا غفلوا، ولا أنكروا إرساله الرسل، ولا أنكروا إنزاله الكتب والوحي، فلنتأمل صلة هذه الآيات ومعانيها بمقدمة السورة:ـ ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾

إنهم غافلون معرضون، لتصّورهم أن هذه السماوات والأرض ملكه، ولو عرفوا عبادة الملائكة لله لمعرفتهم بعظمته وجلاله ما أعرضوا ولا غفلوا، ولما استمعوا لذكره على هذه الطريقة، ولكنهم جاهلون بهذا كله، ومن ثم لم يؤمنوا، ومن ثم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ومن ثم ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ به الله مما يتعالى عنه. فالصلة بين هذه الآيات ومقدمة السورة واضحة، فلا يغفل إنسان عن اليوم الآخر إلا لجهله بالله.[2]

العظات والعبر من المقطع السابق:

١ـ في قوله تعالى:ـ ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

إنما هو فرض جدلي لتقرير حقيقة مجردة... هي أن كل ما يتعلق بذات الله ـ سبحانه ـ قديم لا حادث، وباق غير فان. فلو أراد ـ سبحانه ـ أن يتخذ لهوًا لما كان هذا اللهو حادثًا،ولا كان متعلقاً بحادث كالسماء والأرض وما بينهما فكلها حوادث... وإنما يكون ذاتيًا من لدنه سبحانه، فيكون أزليًا باقيًا، لأنه يتعلق بالذات الأزلية الباقية.

---

(١) المرجع نفسه ـ (١١/ ١٢٨)

(٢) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٣٤٣٩/ ٣٤٤٠)

إنما الناموس المقرر والسنة المطردة ألا يكون هناك لهو، إنما هناك جد، ويكون هناك حق، فيغلب الحق الأصيل على الباطل العارض.[1]

٢ـ دَلَّ قوله تعالى:ـ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾

على أن (بل) إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاتِهِ كأنه قال:ـ سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب بل من موجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق، واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرًا لإبطاله فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلًا قذف به على جرم رخو فدمغه.[2] وتدل الآية أن الله سبحانه وتعالى خلقكم لحكمةٍ، وصوركم لغاية،وجعل لكم السمع والأبصار لمنافع قدرناها لكم، لا لهوًا ولعبًا، ومن ثم لا يترككم سدى، بل يحاسبكم، ويؤاخذكم، والجد مطلبنا، واللهو واللعب من شأن العبيد المخلوقين، لا من شأن رب العالمين.[3]

٣ـ قوله تعالى:ـ ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ معناه:أن كل المكلفين في السماء والأرض هم عبيده، وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم، فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه.[4]

٥ـ قوله تعالى ـ ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾معناه: أن الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله سبحانه وتعالى ولا يفترون كما يستكبر هؤلاء المشركون ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ ـ أي يقصرون ـ في العباد ة، فحياتهم كلها عبادة وتسبيح بالليل والنهار دون انقطاع ولا فتور، والبشر يملكون أن تكون حياتهم كلها عبادة دون أن ينقطعوا للتسبيح والتعبد كالملائكة، فالإسلام يعد كل حركة وكل نفس إذا توجه بها صاحبها إلى الله، ولو كانت متاعًا ذاتيًا بطيبات الحياة !عملًا صالحًا يؤجر عليه صاحبه.[5]

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ١٨)
(٢) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٢٧ـ ١٢٨)
(٣) تفسير المراغي ـ المراغي ـ (١٧/ ١٦)
(٤) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٢٨)
(٥) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٠)

المطلب الثالث :ـ مناقشة المشركين في عقائدهم :ـ

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الأنبياء: ٢١- ٢٩

(أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ؟!!) والمنكر هو اتخاذهم آلهة من الأرض يزعمون أنها تحيي الموتى للبعث والحساب، نعم من أفظع المنكرات أن يحيي الجماد الموتى، عجبًا هم ينكرون البعث والحساب ويقولون:ـ أئذا كنا ترابًا أئنا لفي خلق جديد ؟من يحيي العظام وهي رميم؟!!

ثم بعد ذلك يتخذون آلهة من الأرض هم ينشرون !! نعم في اتخاذهم هذه الأصناف آلهة إلزام لهم بأن ينسبوا لها إحياء الموتى، فإنه لا يقدر على إعادة الحياة إلا الإله الذي بدأ الحياة، وفي هذا من أسلوب العرب التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل ما لا يخفى فإنما استبعدوه على الله من البعث لا يصح لأنه لازم للإلوهية، وانظر إلى قوله تعالى:ـ ﴿ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ فأنهم من الأرض !ولا تعبد إلا فيها.[1] وفي هذا تسفيه لعقول هؤلاء المشركين، الذين يعبدون مما على الأرض، من ناطق أو صامت، مثل أولئك الذين اتخذوا من البشر آلهة، أومن الأحجار أصنامًا ينحتونها ويعبدونها. فهؤلاء أحمق عقولًا، وأغلظ جهلًا من أولئك الذين عبدوا الملائكة وإن كان هؤلاء وأولئك جميعًا في ضلال مبين.

---

(١) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٢٤)

فلا الملائكة المقربون، ولا الجن، ولا البشر، ولا الأحجار، ولاشيء مما خلق مما يصح في عقل عاقل أن يجعل له إلى الله نسبًا، فضلًا عن أن يجعله إلهًا مع الله، يشاركه التصريف والتدبير.

وفي قوله تعالى:ـ "من الأرض " إشارة إلى مدى الانحطاط العقلي، الذي وصل إليه أولئك الذين يعبدون ما على هذه الأرض من مخلوقات. فهي من معدن هذا التراب الذي تدوسه الأقدام، فكيف يكون هذا التراب المشكل في أي صورة من الصور، إلهًا يعبد من دون الله، ويرجى منه ما يرجو المؤمنون بالله، من الله رب العالمين ؟[1]

والسؤال عن اتخاذهم آلهة هو سؤال استنكار للواقع منهم. ووصف هؤلاء الآلهة بأنهم ينشرون من الأرض، أي: يقيمون الأموات ويبعثونهم أحياء. فيه أسلوب تهكم العرب بتلك الآلهة التي اتخذوها. فمن أول صفات الإله الحق أن ينشر الأموات من الأرض.

فهل التي اتخذوها تفعل هذا ؟ إنها لا تفعل، ولا يدعون لها هم أنها تخلق حياة أو تعيد حياة، فهي إذن فاقدة للصفة الأولى من صفات الإله.[2]

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

هذه قضية تعقيب على ما وُوجِهَ به المشركون الذين يتخذون من عباد الله، في السماء أوفي الأرض:ـ آلهة، فإن ذلك سفه وجهل، وسوء تقدير لما ينبغي أن يكون للإله المعبود، من صفات الكمال والجلال المطلقين. وإذا كان الإله الذي يستحق العبادة موصوفًا بصفات الكمال المطلق فإن هذه الصفات ـ في إطلاقها ـ لا تكون إلا لإله واحد، لا يشاركه أحد فيها، إذ لو شاركه غيره فيها، أو كان له مثلها، لما كان له الكمال المطلق، ولما كان له التفرد بالإلوهية....إذ الكمال المطلق صفة واحدة لا يتصف بها إلا موصوف واحد، هو الله سبحانه.[3]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٥٨)
(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٠٥/ ٢٠)
(٣) صفوة التفاسير ـ محمد علي الصابوني ـ (٢/ ٢٥٨

هذا برهان على وحدانيته تعالى، أي: لو كان في الوجود آلهة غير الله لفسد نظام الكون كله لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع في الخلق والتدبير وقصد المغالبة.[1]

أي: لو كان في السماء والأرض آلهة شتى تدبر أمرها غير الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي فطر السماوات والأرض لفسدتا. إذ من المعلوم أن أي عمل يفسد بتدبير رئيسين لأن كُلًّا يدعي لنفسه حق الرياسة والتوجيه لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف.[2]

ومن جهة أخرى فإن هذا الوجود، في علوه وسفله، وفي سمائه وأرضه ـ لو قام عليه أكثر من ذي سلطان واحد مطلق، لما استقام أمره، ولما استقرّ نظامه، ولكان لكل ذي سلطان أن يتصرف فيما له سلطان عليه، ولذهب كل منهم مذهبًا، فمضى ذا مشرقًا، ومضى ذاك مغرّبًا. وأخذ هذا يمينًا،وأخذ ذاك يسارًا. فيتصادم هذا الوجود، وتتضارب الموجودات، وينفرط عقدها، وتتناثر أشلاؤها.[3]

وكذلك في الجماعات البشرية،لا يستطيع رئيسان أن يحكما هذه الجماعات، أو ملكان فما بالك بهذا الكون العظيم؟

الكون القائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعًا، وينسق بين أجزائه جميعًا، وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم. هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد.

فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات.ولتعددت النواميس تبعًا لها ـ فالإرادة مظهر الذات المريدة. ـ

والناموس مظهر الإرادة النافذة ـ ولانعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه، ولوقع الاضطراب والفساد تبعًا لفقدان

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ـ ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٦٠)

(٢) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٢٤)

(٣) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٦٠ـ٨٦١)

التناسق.هذا التناسق الملحوظ الذي لا ينكره أشدُّ الملحدين، لأنه واقع ملموس،وإن الفطرة السليمة التي تتلقى إيقاع الناموس الواحد للوجود كله، لتشهد شهادة فطرية بوحدة هذا الناموس، ووحدة الإرادة التي أوجدته، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون المنظم المنسق، الذي لا فساد في تكوينه، ولا خلل في سيره.[1]

فإبطال تعدد الإله، بإقامة البرهان على انتفائه، بل على استحالته، أي: لو كان في السماوات والأرض، آلهة غير الله، كما هو اعتقادهم الباطل" لَفَسَدَتَا" أي: لبطلتا بما فيهما جميعًا لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع، وحيث انتفى التالي عُلم انتفاء المقدم قطعًا، بيان الملازمة لأن الإلهية مستلزمه للقدرة على الاستبداد، بالتصرف فيها على الإطلاق، تغييرًا وتبديلًا، وإيجاداً وإعدامًا، فبقاؤهما على ما هما عليه، إمَّا بتأثير كل منهما وهو محال، وإمَّا بتأثير واحد منهما، فالباقي بمعزل من الإلهية قطعًا.[2]

﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان، أي:ـ تنزه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به من ثبوت الشريك له، وفيه إرشاد للعباد أن ينزّهوا الربّ سبحانه عمّالا يليق به.[3]

فهو تنزيه لله سبحانه وتعالى عما يصفه به الواصفون، من صفات لا تخصّه بالكمال المطلق، بل تجعل له شريكًا فيها، ويكون له بمقتضى ذلك سلطان مع سلطان الله، وعرش كعرش الله..فالله سبحانه منزه عن أن يكون على تلك الصفة..إنه سبحانه الإله المتفرد بالخلق والأمر.[4]

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ أي: هو الحاكم الذي

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٠ـ٢١)

(٢) المقتطف من عيون التفاسير ـ مصطفى المنصوري ـ حققه وخَرَّج أحاديثه محمد علي الصابوني ـ دار السلام ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م ـ (٣/ ٣٨١)

(٣) فتح القدير ـ الشوكاني ـ (٣/ ٤٧٥) 3

(٤) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٦١)

لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلوه وحكمته وعدله ولطفه.[1]

كانت عادة الملوك أنهم لا يسألون عما يصدر من أفعالهم مع إمكان الخطأ فيها، كان ملك الملوك أحق ولَمَّا بأن لا يسأل هذا مع علمنا أنه لا يصدر عنه إلا ما اقتضته الحكمة العارية عن الخلل والتعقيب.[2]

لأنهم مملوكون مستعبدون واقع منهم الخطأ كثيرًا فهم جديرون أن يقال لهم لِمَ فعلتم كذا.[3]

فلا سائل يسأل ربّ العرش عن الذي يفعل بخلقه من تصريفهم فيما شاء من حياة وموت وإعزاز وإذلال وغير ذلك من حكمه فيهم، لأنهم خلقه وعبيده، وجميعهم في ملكه وسلطانه، والحكم حكمه، والقضاء قضاؤه، لاشيء فوقه يسأله عما يفعله لم فعلت ؟ ولم لم تفعل ؟[4]

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولما قام الدليل، ووضح السبيل، واضمحل كل قال وقيل، فانمحقت الأباطيل،قال:ـ منبهًا لهم على ذلك:ـ أي: أَبَعْدَ هذه الأدلةِ التي ظهرت تقولون:ـ إنَّ لله شركاء؟

فاعلم أنه سبحانه كرر قوله ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ استعظامًا لكفرهم، أي: وصفهم الله بأن له شريكًا،فهاتوا برهانكم على ذلك، إما من جهة العقل أومن جهة النقل، فإنه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد أولًا وقرر الأصل الذي عليه تخرج شبهات القائلين بالتثنية ثانيًا،أخذ يطالبهم بذكر شبهتهم ثالثًا.[5]

---

(١) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ـ محمد جمال الدين القاسمي ـ (١٠/ ٤٢٦١ـ٤٢٦٢)
(٢) البحر المحيط ـ أبو حيان الأندلسي ـ (٧/ ٤٢٠)
(٣) المرجع نفسه ـ (٤٢٠)
(٤) جامع البيان ـ الطبري ـ (١٠/ ٢٠)
(٥) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٣٦)

فمع هذه البديهات التي تقع في متناول كل عقل، والتي تقضي بما لا يدع مجالًا للشك، بأنه لا يمكن أن يكون لهذا الوجود إلا إله واحد، يقوم عليه، ويدبر أمره ـ مع هذا، فإن هؤلاء الضالين المشركين قد عموا عن هذه البديهيات، وقصرت أفهامهم عن إدراكها، وساغ لهم أن يعبدوا أكثر من إله، وأن يوّزعوا عقولهم وقلوبهم بين أرباب وأشباه أرباب، ولم يحاولوا أن يُجيبوا عن هذا السؤال:ـ

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ يوسف: ٣٩

كما لم يحاولوا أن يقيموا دليلًا يقبله العقل، ويرتضيه المنطق لعبادة هذه الآلهة المتعددة !(١)

ثم أمرهم بإقامة الدليل على صحة ما يدّعون فقال:ـ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي بعد أن ثبت أنه لا إله غيره، فهاتوا برهانكم على صحة اتخاذ الآلهة من الأصنام والأوثان، ولا سبيل إلى ذلك، لا بالدليل العقلي، لأنه مَرَّ بطلانه، ولا بالدليل النقلي، لأن الكتب السماوية جميعًا متفقة على هذا.(٢)

فهنا دعوة لهؤلاء المشركين أن يرجعوا إلى عقولهم، وأن يأتوا منها بالدليل والحجة على ما يعبدون من دون الله.(٣)

قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ المؤمنون: ١١٧

فهو يدعو النبي صلى الله عليه وسلم ليقول لهم:ـ ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾

على ما تدعونه من جهة العقل الصريح أو النقل الصحيح، فإنه لا يصح القول بمثل ذلك من غير دليل عليه، وما في إضافة البرهان إلى ضميرهم من الإشعار بأنَّ لهم برهانًا ضَرْبٌ من التهكم بهم.(٤)

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٦٢)
(٢) تفسير المراغي ـ أحمد المراغي ـ (١٧/ ٢٠)
(٣) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٦٢)
(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ الالوسي ـ (١٧/ ٣١)

﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾

إنارة لبرهانه، وإشارة إلى أنه مما نطقت به الكتب الإلهية قاطبة، وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة. وزيادة تهييج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم، أي هذا الوارد في شأن التوحيد، المتضمن للبرهان القاطع العقلي، ذكر أمتي أي: عظتهم، وذكر الأمم السالفة قد أقمته فأقيموا أنتم أيضًا برهانكم.[1] وانظروا في واحد من الكتب السماوية غير الأمر بالتوحيد، والنهي عن الإشراك،ففيه تبكيت لهم، متضمن لإثبات نقيض مدّعاهم.[2]

فهذا هو القرآن الكريم يشتمل على ذكر المعاصرين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهناك ذكر من سبقه من الرسل، وليس فيما جاؤوا به ذكر الشركاء. فكل الديانات قائمة على عقيدة التوحيد، فمن أين جاء المشركون بدعوى الشرك التي تنقضها طبيعة الكون، ولا يوجد من الكتب السابقة عليها دليل.[3]

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: لا يميزون بينه وبين الباطل، فأكثر المشركين لا يعلمون التوحيد، فهم معرضون عن النظر والتأمل في دلائل الإيمان.[4]

فهذا الكتاب المنزل عليكم هو الحق من عند ربكم فاسمعوا له وأطيعوا، وإلا فأنتم معرضون عنه، ومن أعرض عن ذكر الله فإن له معيشةً ضنكًا، ونحشره يوم القيامة أعمى.[5]

وقوله تعالى:ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

استئناف مقرر من آي التوحيد، وقد يقال إنَّ فيه تعميمًا بعد تخصيص إذا أريد من

---

(١) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ـ محمد جمال الدين القاسمي ـ (١٠ / ٤٢٦٣)
(٢) المقتطف من عيون التفاسير ـ المنصوري ـ (٣/ ٣٨٣)
(٣) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٢
(٤) صفوة التفاسير ـ الصابوني ـ (٢/ ٢٥٨)
(٥) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٢٥)

﴿ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ الكتب الثلاثة، ولما كان ﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾ عامًا معنى فكان هناك لفظ ومعنى أفرد على اللفظ في نوحي إليه ثم جمع على المعنى في ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ولم يأتِ التركيب فاعبدني، وهذا بناء على أن ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴾ داخل في الموحي، وجوز عدم دخول الأمر له صلى الله عليه وسلم ولأمته.[1] فالتوحيد هو قاعدة العقيدة منذ بعث الله الرسل للناس، لا تبديل فيها ولا تحويل.

توحيد الإله وتوحيد للمعبود، فلا انفصال بين الإلوهية والربوبية، ولا مجال للشرك في الإلوهية ولا في العبادة..قاعدة ثابتة ثبوت النواميس الكونية، متصلة بهذه النواميس وهي واحدة منها.[2]

هاهي خلاصة الرسالات السماوية من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم جميعًا، أنه لا إله إلا هو فاعبدوه وحده لا تشركوا به شيئًا أبدًا فهل لكم حجة عقلية أو نقليه في اتخاذ الآلهة من دون الله؟!!

وهذه الآية مقررة لما سبقها من آيات التوحيد.

وبعد أن بين سبحانه بالدلائل الباهرة أنه منّزه عن الشريك والنّـد ـ أردف ببراءته من اتخاذ الولد فقال:ـ ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾

فنزه سبحانه وتعالى نفسه عن ذلك بقوله سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾، لأنَّ الولدَ لابدَّ وأَنْ يكونَ شبيهًا بالوالد، فلو كان لله ولد لأشبهه من بعض الوجوه، ثم لابد وأن يخالفه من وجه آخر وما به المشاركة غير ما به المايزة، فيقع التركيب في ذات الله سبحانه وتعالى وكل مركب ممكن، فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكنًا غير واجب، وذلك يخرجه عن حد الإلوهية ويدخله في حد العبودية، ولذلك نزه نفسه عنه.[3] وهو إشارة إلى أهل الكتاب، الذين أشار إليهم سبحانه تعالى في قوله:ـ ﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ فأهل الكتاب هؤلاء من اليهود والنصارى، قد جاءهم رسولان، كريمان، بشران، من عباد الله،هما:ـ موسى، وعيسى، عليهما

---

(١) روح المعاني ـ الآلوسي ـ (١٧/ ٣٢).

(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٢).

(٣) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ(٢/ ٥٢٥).

السلام، فدعواهم إلى الإيمان بالله وحده، ولكنهم قلبوا وجه هذه الدعوة، فجعل النصارى المسيح ابنًا لله، وجعل اليهود عزيرًا ابن الله، كما اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله"[1] وفي هذا يقول الله تعالى:ـ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ التوبة: ٣٠ ـ ٣١

وقد رَدَّ الله عليهم هذا الزعم الباطل بقوله:ـ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي: أن المسيح وعزيرًا والأحبار والرهبان، هم من عباد الله، أكرم بعضهم واصطفاه لرسالته، كما أكرم واصطفى كثيراً من عباده ورسله بالنبوة والرسالة، وكما أكرم كثيرًا منهم بالإيمان.[2]

وقوله ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما نزه نفسه عن الولد أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة إلا أنهم مكرمون على سائر العباد.[3]

فقد يرجع في تفسير الآية ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ على أنهم أنبياء الله الذين وصفهم أقوامهم بأنهم أبناء الله، ويمكن أن يكون تفسير الآية على أنهم الملائكة مثل ما ذكر بأن بعض العرب تقول بأن الملائكة بنات الله. فهؤلاء الكافرون بربهم قالوا:ـ اتخذ الرحمن ولدًا من ملائكته فقال جل ثناؤه:ـ استعظامًا لما قالوا وتبريئًا مما وصفوه به سبحانه، يقول تنزيهاً له عن ذلك:ـ ما ذلك من صفته ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾

يقول:ـ ما الملائكة كما وصفهم به هؤلاء الكافرون من بني آدم، ولكنهم عباد مكرمون.[4]

والمفهوم الذي يعنيه السياق هنا هو دعوى العرب في بنوة الملائكة، وهو يرد

---

(١) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٣٨)
(٢) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٦٤)
(٣) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٣٨)
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ الطبري ـ (١٧/ ٢٢)

عليهم ببيان طبيعة الملائكة، فهم ليسوا بنات الله ـ كما يزعمون ـ ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ عند الله.[1] وقوله تعالى:ـ ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وهم لا يقترحون عليه شيئًا تأدبًا وطاعة وإجلالًا، إنما يعملون بأمره، وعلم الله بهم محيط. وهم لما علموا كونه سبحانه عالمًا بجميع المعلومات، علموا كونه عالمًا بظواهرهم وبواطنهم، فكان ذلك داعيًا لهم إلى نهاية الخضوع وكمال العبودية.[2]

ولا يتقدمون بالشفاعة إلا لمن ارتضاه الله ورضي أن يقبل الشفاعة فيه، وهم بطبيعتهم خائفون من الله مشفقون من خشيته ـ على قربهم وطهارتهم وطاعتهم التي لا استثناء فيها ولا انحراف عنها، وهم لا يدعون الألوهية قطعًا، ولو ادعوها ـ جدلًا ـ لكان جزاؤهم جزاء من يدعي الألوهية كائنًا من كان هو جهنم، فذلك جزاء الظالمين الذين يدعون هذه الدعوى الظالمة لكل حق، ولكل أحد، ولكل شيء في هذا الوجود.[3]

وهنا يتبين لنا دعوى المشركين في صورتها السابقة واهية ضعيفة، لا يدعيها أحد إلا كان جزاؤه أليمًا. وسيذوق وبال أمره من هذه الدعوى.

المناسبات بين آيات المقطع وما قبله:

إن الكلام من أول السورة إلى ههنا كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالًا وجوابًا، وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد ونفي الأضداد والأنداد.[4]

نفي ظل التسبيح الذي لا يفتر ولا ينقطع لله الواحد، مالك السماوات والأرض ومن فيهن.

يجيء الإنكار على المشركين واستنكار دعواهم في الآلهة، ويعرض السياق دليل

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٣)

(٢) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٣٨)

(٣) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٣)

(٤) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٠).

الوحدانية من المشهود في نظام الكون وناموسه الواحد الدال على المدبر الواحد، ومن المنقول عن الكتب السابقة عند أهل الكتاب.[1]

ففي الآيات السابقة بيَّن الله تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض عبثًا أو باطلًا، بل لبيان قدرة خالقهما، وعلو عظمته، وجلال حكمته، فإن العبث والسدى ينافي حكمته.

ثم رد الله على أهل النصرانية وما زعموه افتراء على الله، وناسب ذلك الرد على المشركين، وتوبيخهم، فلو كان فيهما إلهان لفسد التدبير، ولحدث التنازع والخلاف، وهو سبب الهلاك.

ناسب كل ما سبق تنزيه الله، وتقديسه عن كل ما يصفه به الكفار والمشركون.[2]

ومن أَجلِّ صفاته:ـ أنه لا يسأله الخلق عن قضائه في خلقه، وهو يسأل الخلق عن أفعالهم وأعمالهم، لأنهم عبيد له.[3]

وناسب ذلك إعادة التعجب، والتوبيخ في اتخاذ الكفار آلهة من دون الرحمن، ثم طالبهم بالإتيان بالحجة والبرهان. وذلك ناسب علمه تعالى أنهم يعجزون عن الإتيان، وفي ذلك إقامة للحجة عليهم.[4]

قوله تعالى:ـ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ أما صلة هذه الآية بما قبلها، فإننا نلاحظ أنه ورد قبل هذه الآية قوله تعالى:ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً ﴾ كما ورد قبل ذلك قوله تعالى:ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً ﴾ ومن ثم فبعد أن رد أكثر من رد على اتخاذ الإنسان مع الله إلهًا، جاءت هذه الآية لتؤكد أن كل رسول بعث بالتوحيد فحجة الله قائمة على البشر.

---

(١) مصحف دار الصحابة في تناسب وتناسق الآيات وأسرار فواتح وخواتم السور ـ مجدي فتحي السيد ـ (٣٢٣ـ٣٢٤).

(٢) المرجع نفسه ـ (٣٢٤).

(٣) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٣٤).

(٤) مصحف دار الصحابة ـ مجدي فتحي السيد ـ (٣٢٤).

أما الصلة بين هذه الآية وسياق السورة الخاص فنجده إذا تذكرت قول الكافرين كما قصه الله علينا ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ فهذه الآية تقول إن الأولين قد أرسلوا بالتوحيد، وهذا محمد صلى الله عليه وسلم أرسل بالتوحيد ورسالته مؤكدة لرسالات الرسل من قبله، فلماذا يطالبون بالآيات، ويرفضون المضمون، وهو مضمون كل رسالة لله، ولماذا يسمون هذه الرسالة هذه الأسماء وينعتونها هذه النعوت؟ وهي استمرار لرسالات الله.[1]

والصلة في قوله تعالى:ـ ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ والصلة بين هذه الآيات الأربع وما قبلها، من حيث إن جعل الملائكة أولادًا يتنافى مع التوحيد، فلا يتفق مع توحيد الله أن يكون له ولد، إذ للولد أحكام الأب، ومِنْ ثَمَّ يكون هناك شريك، والله منزه عن الشريك، فالآيات ذكرت اتجاهًا شركيًا للكافرين، وردّت عليه في سياق التأكيد على التوحيد.

والصلة بين هذه الآيات الأربع وسياق السورة:ـ

أنها قصت لنا قولًا جديدًا من أقوال أهل الشرك والكفر، وردت عليه.[2]

العظات والعبر من المقطع السابق:

١ـ دَلَّ قوله تعالى:ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

على أنّ من لا يملك النشر ـ أي: إحياء الموتى ـ لا يصح أن يكون إلهًا، وإذا كان الله تعالى وحده هو القادر على كل شيء، فهو وحده القادر على النشر، فهو وحده الإله، وفي ذلك تقريع لمن نسي الحساب، وتقريع لمن اتخذ معه إلهًا.[3]

---

(١) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٣٤٥٠)

(٢) المرجع نفسه ـ (٣٤٥١)

(٣) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٣٤٤٤)

٢ـ من أعظم الأدلة التي ذكرها القرآن على التوحيد قوله تعالى:ـ ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وهذا الدليل الكوني مستمد من واقع الوجود، فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعًا، وينسق بين أجزائه جميعًا، وبين حركات هذه الأجزاء وحركة المجموع المنظم. هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد.

فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات. ولتعددت النواميس تبعًا لها، فالإرادة مظهر للذات مريدة، والناموس مظهر الإرادة النافذة ـ ولانعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه، ولوقع الاضطراب والفساد تبعًا لفقدان التناسق. هذا التناسق الملحوظ الذي لاينكره أشد الملحدين لأنه واقع ملموس.[1]

٣ـ في الدعوة إلى الله علينا أَنْ نبرهن على أن الله موجود، ونعلل أنه أرسل رسولًا، وعلى أنه أنزل وحيًا، وعلينا أن نعرّف على الله، وعلى أن الإنسان مسؤول أمامه، وفي عملية التعريف على الله نذكر أن كل شيء بعلمه وإرادته وقدرته، وفي عملية التعريف على مسؤولية الإنسان نذكر أنه مكلّف مختار،

ونبرهن على أن اختيار الإنسان لا يتنافى مع إحاطة العلم والإرادة والقدرة، لأن القدرة تعمل على وفق العلم، والعلم كاشف لا مجبر، عند هذا الحدّ يقف الكلام، فلو جادلنا مجادل فقال:ـ لم أراد الله ما أراد؟

نقول الحكمة معروفة وموجودة، ولكن ما بعد ذلك ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ إنَّ معرفة هذا الموضوع من أهم ما ينبغي أن يعرفه المسلم، ومن أعظم ما ينبغي أن يتذكره الإنسان في سيره العقلي إلى الله ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[2]

٤ـ إن الله سبحانه وتعالى ذكر موضوع اتخاذهم الآلهة مرتين في هذه المجموعة:

الأولى:ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٠ـ٢١)

(٢) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٣٤٤٦)

والثانية:ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً ﴾

يلاحظ أنه قيدت الآلهة المتخذة في الآية الأولى بالأرض، بينما لم تقيد في الآية الثانية، فكأن الآية الثانية تتحدث عن اتخاذهم آلهة من الأرض وغيرها.[1] استعظامًا لكفرهم أي: وصفهم الله بأن له شريكًا وطلب برهانهم على ذلك، إما من جهة العقل أو من جهة النقل، فإنه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد أولًا وقرر الأصل الذي عليه تخرج شبهات القائلين بالتثنية ثانيًا أخذ يطالبهم بذكر شبهتهم ثالثًا.[2]

٥ـ في تفسير قوله تعالى:ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ أن المراد بذكر من معي هو القرآن الكريم، وذكر من قبلي هي الكتب السابقة، ولكن من المحتمل أن يكون القرآن هو المراد في قوله ﴿ ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ فالقرآن يشتمل على ذكر المعاصرين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهناك ذكر من سبقه من الرسل، وليس فيما جاؤوا به ذكر الشركاء، فكل الديانات قائمة على عقيدة التوحيد، فمن أين جاء المشركون بدعوى الشرك التي تنقضها الطبيعة، ولا يوجد من الكتب السابقة دليل.[3]

٧ـ دل قوله تعالى:ـ ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ على العبودية للملائكة التي تنافي الولادة من وجوه:ـ

أحدها:ـ أنهم لما بالغوا في الطاعة إلى حيث لا يقولون قولًا ولا يعملون عملًا إلا بأمره فهذه صفات للعبيد لا صفات الأولاد.

ثانيها:ـ أنه سبحانه لما كان عالمًا بأسرار الملائكة وهم لا يعلمون أسرار الله تعالى، وجب أن يكون الإله المستحق للعبادة هو لا هؤلاء الملائكة. وهذه الدلالة هي

---

(١) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٣٦)

(٢) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٣٤٤٦)

(٣) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٢)

نفس ما ذكره عيسى عليه السلام في قوله سبحانه:ـ ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ المائدة: ١١٦

ثالثها:ـ أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، ومن يكن إلهًا وولدًا لإله فإنه لا يكون كذلك.

رابعها:ـ أنهم على نهاية الإشفاق والوجل، وذلك ليس إلا من صفات العبيد.

خامسها:ـ نبه تعالى بقوله:ـ ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ على أن حالهم حال سائر العبيد المكلفين في الوعد والوعيد فكيف يصح كونهم آلهة.[1]

المطلب الرابع:ـ الربط بين وحدانية الخالق ووحدة الرسالة والعقيدة ووحدة مصدر الحياة ونهايتها:ـ

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

بعد أن بينت لنا الآيات الأدلة الكونية الشاهدة بالوحدة، والأدلة النقلية النافية للتعدد، والأدلة الوجدانية التي تلمس القلوب.يجول السياق بالقلب البشري في مجال الكون الضخم، ويد القدرة تدبره بحكمة وهم معرضون عن آياتها المعروضة على الأنظار والقلوب[2]:ـ

في قوله تعالى:ـ ﴿ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ

---

(١) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (٥/ ١٣٨)

(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٣)

﴿ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ إلفات إلى قدرة الله سبحانه وتعالى، وإلى ما أبدع وصور في هذا الوجود، فالسماوات والأرض، كانتا شيئًا واحدًا، وكتلة متضخمة من المادة. ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ أي: منضمًا بعضهما إلى بعض، فلا سماء ولا أرض.بل كون لا معلم فيه. ثم كان من قدرة الله ومن علمه، وحكمته، أن أقام من هذا الكون المتضخم هذا الوجود، في سمائه وأرضه، وما في سمائه من كواكب ونجوم.. ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ أي: فصلنا بعضهما عن بعض.فكانت السماء وكانت الأرض.[1] وتقريره أن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقتا، مسألة جديرة بالتأمل، كلما تقدمت النظريات الفلكية في محاولة تفسير الظواهر الكونية، فحامت حول هذه الحقيقة التي أوردها القرآن الكريم منذ أكثر من ١٣٠٠ عام.[2]

ونحن لا نحاول أن نحمل النص القرآني على تفسير النظريات التي هي من اعتقاد البشر، فما تقوم به نظرية اليوم، قد يحتمل نقيضها غدًا، وقد تقوم نظرية أخرى تصلح لتفسير الظواهر الكونية بفرض آخر يتحول بعد ذلك إلى نظرية أخرى، وقد يشير القرآن أحيانًا إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقررها هنا ﴿ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن، وإن كنا لا نعرف كيف كان فتق السماوات والأرض، أو فتق السماوات عن الأرض، ونتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن.ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء آيّ نظرية فلكية، ولا نطلب تصديقًا للقرآن في نظريات البشر، وهو حقيقة مستيقنة!وقصارى ما يقال:ـ إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال.[3] أما شطر الآية ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ فهو إشارة إلى هذا العنصر العظيم من عناصر الحياة، وهو الماء. فهو أصل كل حي، وبذرة كل حياة في عالمنا هذا الذي نعيش فيه.فالإنسان، والحيوان، والنبات، قوامها جميعًا الماء، الذي به

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٦٧)

(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٤)

(٣) نفس المرجع ـ (٥/ ٢٤)

لبست الحياة، ومنه تستمد بقاءها أو وجودها فإذا افتقدت الماء عادت إلى عالم الأموات.[1]

﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ استفهام إنكار وفيه معنى التعجب من ضعف عقولهم، والمعنى: أفلا يتدبرون هذه الأدلة ويعملوا بمقتضاها ويتركوا طريقة الشرك، وأطلق الإيمان على سببه، وقد تضمنت هذه الآية دليلين من دلائل التوحيد وهي من الأدلة السماوية والأرضية.[2]

وهو هنا إلفات إلى ما صنع الله سبحانه وتعالى بالأرض، بعد أن فصلها عن مادة الوجود، وصورها على تلك الصورة. فقد جعل الله سبحانه وتعالى فيها جبالًا راسية ثابتة، تشدُّها، وتمسك بها أن تميد وتضطرب، وجعل في هذا الجبال فجاجًا، أي: فجوات، وهي سبل يسلكها الناس في انتقالهم من جهة إلى أخرى. ويجعلون منها معالم يتعرفون منها على الأماكن والجهات، حتى لا يضلّوا في أسفارهم.[3]

أي: وقد جعلنا فيها طرقًا واسعة وأودية مترامية الأطراف بين الجبال ليصلح عليها السير والإنبات لعلكم تهتدون إلى الصانع الحكيم.

قوله تعالى:ـ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ سمّى السماء سقفًا لأنها للأرض كالسقف للبيت. أي: إنه تعالى نظَّم السماء وجعلها كالسقف المحفوظ من الاختلال وعدم النظام، فقد حفظت الشمس والكواكب في مداراتها بحيث لايختلط بعضها ببعض، بل

جُعِلت في أماكنها الخاصة بقوة الجاذبية.فالشمس والقمر والكواكب الأخرى متجاذبات حافظات لمداراتها لاتخرج عنها وإلا اختل نظام هذا العالم، وبهذا الحفظ ونظام الدوران كان الليل والنهار حادثين من جري الأرض وراء الشمس.[4]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٦٨)
(٢) البحر المحيط ـ لأبي حيان الاندلسي ـ (٧/ ٤٢٦)
(٣) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٦٩)
(٤) تفسير المراغي ـ المراغي ـ (١٧/ ٢٧ـ٢٨)

أما قوله تعالى:ـ ﴿ مَّحْفُوظًا ﴾ ففيه قولان:ـ

أحدهما:ـ أنه محفوظ من الوقوع والسقوط الذين يجري مثلهما على سائر السقوف كقوله تعالى:ـ ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ الحج: ٦٥

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ فاطر: ٤١

وقال تعالى:ـ " ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٥

الثاني:ـ محفوظًا من الشياطين [1]

قال تعالى:ـ ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ الحجر: ١٧

وقوله تعالى:ـ ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾

إشارة إلى ما في السماء من آيات ناطقة بقدرة الله، شاهدة على علمه وحكمته. ببنائها القائم، وبما تتزين به من كواكب ونجوم. ولكن هؤلاء الضالين، المشركين، في غفلة عن تلك الآيات الباهرة، لا يلقون إليها نظرًا ولا يُديرون نحوها عقلًا.

وفي إضافة الآيات إلى السماء، إشارة إلى عظمة هذا العالم العلوي، وأن السماء كون عظيم، وأن كل

ما لاح في هذا الكون، هو آية من آيات هذا الكون العظيم. [2]

ولما ذكر السماء، ذكر ما ينشأ عنها فقال:ـ ﴿ وَهُوَ ﴾ أي: لا غيره ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ ثم أتبعهما آيتهما فقال:ـ ﴿ وَٱلشَّمْسَ ﴾ التي هي آية النهار وبها وجوده ﴿ وَٱلْقَمَرَ ﴾ الذي هو آية الليل، ولما ذكر أعظم آياتها فأفهم بقية الكواكب، ردًا عمن قد يستفهم قائلًا:ـ هل هي كلها في سماء واحد ؟

---

(١) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٤٣)

(٢) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٧٠)

﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: كل واحد يسبح في الفلك الذي جعل به.[1]

أي: هو تعالى بقدرته نوَّع الحياة فجعل فيها ليلًا ونهارًا هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: كل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء.[2]

وفي قوله تعالى:ـ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذاكرًا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم:ـ وما خلَّدنا أحدًا من بني آدم يا محمد قبلك في الدنيا فنخلدك فيها، ولابد لك من أن تموت كما مات من قبلك رسلنا.[3]

وإذا كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يموت فهل هم يخلدون ؟ وإذا كانوا لا يخلدون فما لهم لا يعملون عمل من يوقن بالموت ؟ ومالهم لا يتبصرون ولا يتدبرون ؟[4]

فقد كان المشركون يستثقلون مقام النبي الكريم فيهم، وقد ساقوا إليه من ألوان الأذى، النفسي والمادي في نفسه، وفي أصحابه، ما لم يحتمله إلا أولو العزم من الرسل. فلما ضاقوا به ذرعًا، وأعيتهم الوسائل في صده عن دعوته إلى الله ـ كان ممّا يعزون به أنفسهم، ويمنونها الأماني فيه، أن ينتظروا به تلك الأيام أو السنين الباقية من عمره، وقد ذهب أكثره، ولم يبق إلا قليله، فقد التقى بهم الرسول الكريم وقد جاوز الأربعين، وها هو ذا صلوات الله وسلامه عليه، لايزال بينهم وقد نّيف على الخمسين، وإذن فهي سنوات قليلة ينتظرونها على مضض، حتى يأتيه المنون![5] وهذا

---

(١) نظم الدرر ـ البقاعي ـ (٨١)
(٢) صفوة التفاسير ـ محمد علي الصابوني ـ (٢/ ٢٦١)
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ الطبري ـ (١٧/ ٣٣)
(٤) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٦)
(٥) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٧١ـ ٨٧٢)

ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى:ـ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ الطور: ٣٠

﴿ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ فهل هؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون في الدنيا بعدك ؟ كلاّ، بل هم ميتون بكل حال عشت أو مت، فأدخلت الفاء في " إن " وهي جزاء، وفي جوابه، لأن الجزاء متصل بكلام قبله، ودخلت أيضًا في قوله "فهم " لأنه جواب للجزاء، ولو لم يكن في قوله " فَهُم " الفاء جاز على وجهين:ـ أحدهما:ـ أن تكون محذوفة وهي مرادة،

الآخر:ـ أن يكون مرادًا تقديمها إلى الجزاء، فكأنه قال:ـ أفهم الخالدون إن متّ.[1]

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم، وإليه ترجعون، فالموت نهاية كل حي وسبيل كل نفس، ولا يبقى إلا الحي القيوم الباقي بعد فناء خلقه فاعتبروا يا أولي الأبصار.[2]

وفي قوله تعالى:ـ ﴿ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ إشارة إلى أن للموت طعمًا تجده النفوس حين تفارق الأجساد.

وهذا الطعم يختلف بين نفس ونفس. فالنفس المؤمنة تستعذب وِرده، وتستسيغ طعمه، لِما ترى فيه من خلاص لها من هذا القيد، الذي أمسك بها من الانطلاق إلى عالمها العلوي، حيث تروي ظمأها، وتبرد نار أشواقها، وتنعم في جنات النعيم التي وعد الله المتقين.

أما النفس الضالة الآثمة فإنما يحضرها عند الموت، حصاد ما عملت من آثام، وما ارتكبت من منكرات وتشهد ما يلقاها من غضب الله وعذابه، فتكره الموت، وتجد فيه ريح جهنم التي ينتظره.[3]

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ الطبري ـ (١٧ـ ٣٣)
(٢) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٣١)
(٣) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٧٣)

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:ـ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ الأنعام: ٩٣

وقوله سبحانه:ـ ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ التوبة: ٥٥

وفي قوله تعالى:ـ ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

أي: نختبركم بما يجب فيه الصبر من المصائب، وما يجب فيه الشكر من النعم، " فِتْنَةٌ " أي اختبارًا، وهو مصدر مؤكد لنبلوكم.(١) وهنا إشارة إلى ما يقع للناس في دنياهم مما يرونه شرًا أو خيرًا. فذلك كله ابتلاء لهم، واختبار ما يقع للناس في دنياهم مما يرونه شرًا أو خيرًا.واختبار لما يكون منهم مع الشّر من صبر أو جزع، ومع الخير من شكر أو كفر. فما تستقبله النفوس مما يُكره، هو ابتلاء لها على الرضا بقضاء الله، والتسليم له.وما تستقبله مما يُحبّ، هو امتحان لها كذلك، على الشكر والحمد لما آتاها الله من فضله وإحسانه..

فالنفوس المؤمنة لا تجزع من المكروه، ولا تكفر أو تبطر بالمحبوب، لأن كلًا من عند الله، وما كان من عند الله فهو خير كله، محبوب جميعه. هكذا تجده النفوس المؤمنة بالله، العارفة لجلاله، وعظمته، وحكمته.

أما النفوس الضالة عن الله، فإنها إن أصابها شيء من الضر، جزعت، وزادت كفرًا وضلالًا، وإن مسّها الخير، نفرت نفور الحيوان الشرس، واتخذت من نعمة الله سلاحًا تحارب به الله، وتضرب في وجوه عباد الله..(٢)

وفي هذا يقول تعالى:ـ ﴿ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ المعارج: ١٧ - ٢٧

---

(١) تفسير القاسمي المسمى بمحاسن التأويل ـ محمد جمال الدين القاسمي ـ (١٠/ ٤٢٧١)

(٢) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٧٣)

وإن الابتلاء بالخير أشد وطأة، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر، وإن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير.

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف، ولَكِنْ قليلون هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة، ويكبحون جماح القوة الهائجة في كيانهم الجامحة في أوصالهم.

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل، ولكن قليلون هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان، وما يغريان به من متاع، وما يثيرانه من شهوات وأطماع !

إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخي الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة ! لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا في الابتلاء !وذلك شأن البشر إلا من عصم الله. فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر. والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان.[1]

وفي قوله تعالى:ـ ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فنجازيكم على ما صدر منكم في حالة الابتلاء من الصبر والشكر، وفي غير الابتلاء.[2]

وفي الآية إيماء إلى أن المراد من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب.[3]

وبهذا العرض من تفسير الآيات، يتبين لنا أن نواميس الحياة البشرية في طبيعتها، ونهايتها ومصيرها ومرجعها إلى الله سبحانه وتعالى.

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٧ـ ٢٨)

(٢) البحر المحيط في التفسير ـ لأبي حيان ـ (١٧/ ٤٢٨)

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ الآلوسي ـ (١٧/ ٤٧)

المناسبة بين المقطع وما قبله :ـ

بعد أن بينت لنا الآيات اعتقادات الكافرين الباطلة، وناقشتها بالحجج والبراهين العقلية، شرع سبحانه وتعالى في الدلائل الدالة على وجود الصانع، وهذه الدلائل أيضًا دالة على كونه منزهًا عن الشريك، لأنها دالة على حصول الترتيب العجيب في العالم، ووجود الإلهين يقتضي وقوع الفساد، فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد، فتكون كالتوكيد لما تقدم وفيها أيضًا رد على عبدة الأوثان من حيث إنَّ الإله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع، فهذا وجه تعلق الآية بما قبلها.[1]

وذكر الله سبحانه وتعالى ستة أدلة من دلائل عظمته:ـ

الأول:ـ في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾

هنا تدُلُّنا على إثبات الصانع وعلى أن وحدانيته ظاهرة، لأن أحدًا لا يقدر على مثل ذلك، والأقرب أنه سبحانه خلقهما رتقًا لما فيه من المصلحة للملائكة، ثم لما أسكن الله الأرض أهلها جعلهما فتقًا لما فيه من منافع العباد.

الثاني:ـ قوله تعالى:ـ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ وقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ كل شيء حي يغتذي به ويرويه، ولا يمكن أن يصبر عليه وهو حي، على أنه أصله فالحيوان من النطفة التي هي الماء، والنبات لا ينبت أبداً إلا بالماء.[2]

الثالث:ـ قوله تعالى:ـ ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾

وجعلنا في الأرض رواسي شامخات من الجبال خوف أن تميد بالناس وتضطرب، وهي تدور حول نفسها وحول الشمس..[3]

والرابع:ـ قوله تعالى:ـ ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا

---

(١) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٣٩)

(٢) التفسير الواضح ـ محمد محمود حجازي ـ (٢/ ٥٢٨)

(٣) التفسير الواضح ـ محمد محمود حجازي ـ (٢/ ٥٢٨)

﴿ سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ وهنا ذكر تعالى الفجاج في الجبال، وهي الفجوات بين حواجزها العالية، وتتخذ سبلًا وطرقًا[1]. واسعة وأودية مترامية الأطراف بين الجبال ليصلح عليها السير والإنبات، لعلكم تهتدون إلى الصانع المختار.[2]

الخامس:ـ قوله تعالى:ـ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾

وكما أوجد الله سبحانه الأرض على هذه الصورة، وجعل فيها رواسي، وفجاجًا سبلًا، كذلك أقام السماء كما نرى، سقفًا محفوظًا بيد القدرة، فلا تقع علينا.[3] فهو تعالى نظم السماء وجعلها كالسقف المحفوظ من الاختلال وعدم النظام، فقد حفظت الشمس والكواكب في مداراتها بحيث لا يختلط بعضها ببعض، ولا يختبط بعضها في بعض، بل جعلت في أماكنها الخاصة لها بقوة الجاذبية. فالشمس والقمر، والكواكب الأخرى متجاذبات حافظات لمداراتها لا تخرج عنها، وإلا اختل نظام هذا العالم، وبهذا الحفظ ونظام الدوران كان الليل والنهار الحادثان من جري الأرض حول الشمس.[4]

﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ أي: والكفار عن الآيات الدالة على وجود الصانع وقدرته من الشمس والقمر والنجوم وسائر الأدلة والعبر معرضون، لا يتفكرون فيما أبدعته يد القدرة من الخلق العجيب والتنظيم الفريد الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة.[5]

السادس:ـ قوله تعالى:ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنبياء: ٣٣

ولما ذكر السماء ذكر ما ينشأ عنها فقال:ـ " وَهُوَ" أي: لا غيره " الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٥)
(٢) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٢٨)
(٣) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٨٦٩)
(٤) تفسير المراغي ـ أحمد المراغي ـ (٥/ ٢٧ـ ٢٨)
(٥) صفوة التفاسير ـ محمد بن علي الصابوني ـ (٢/ ٢٦٠)

والنَّهَارَ" ثم أتبعهما آيتيهما فقال:ـ" والشَّمْسَ " التي هي آية النهار وبها وجوده " والقَمَرَ" الذي هو آية الليل.

ولما ذكر أعظم آياتها، استأنف كأنه قال:ـ هل هي كلها في سماء واحدة؟

كُلّ" أي: من ذلك " فِي فَلَكٍ" فكأنه قيل ماذا تصنع ؟ فقيل تغليبًا لضمير العقلاء... ونقلهم إليها " يُسْبَحُونَ" كل واحد يسبح في الفلك الذي جعل به.[1]

أي: كل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء.[2] فقد لفت الله نظر الكفار في الآيات السابقة إلى أصل السماوات والأرض وأصل الحياة، وإلى ظاهرة العناية في خلق الجبال، وخلق الفجاج وإلى حفظ السماء من الشياطين، وإلى ظاهرة العناية في خلق الليل والنهار، وسباحة الشمس والقمر والأرض في هذا الفلك الكبير، وفي لفت النظر إلى هذا ما يخرجهم من الكفر إلى الإيمان لو عقلوا، ومن ثم قال في الآية الأولى "ٍ أَفَلا يُؤْمِنُونَ " كما أن في هذا ما يخرجهم من الإعراض إلى الإقبال لو تفكروا، ومن ثم قال في الآية الثالثة:ـ ﴿ وَهُمْ عَنْءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ فهذه الآيات تعالج الإعراض، وتعالج الكفر، وفي ذلك مظهر من مظاهر صلة هذه الآيات بالسياق، وفي لفت النظر إلى هذا تعريف على الله وكمال قدرته وعظمته وفي ذلك رد لما زعموه في حق الله من الولد وتقرير لوجوب توحيده وعبادته، وهذا مظهر من مظاهر الصلة في السياق، ومثقف هذا العصر يدرك أن ذكر هذه الآيات في هذا السياق هو أعظم ردّ على قولهم عن القرآن:ـ ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ إن كتابًا يتحدث عن السماوات والأرض كما رأينا في الآيات الأربع لا يمكن أن يكون كما وصفوه، بل لا يمكن أن يكون إلا من عند الله، وإذن فهذه الآيات إذ تعرض مظهرًا من مظاهر عظمة الله، ترد على ما زعمه الكافرون عن هذا القرآن، وتؤكد علم الله

---

(١) نظم الدرر ـ البقاعي ـ (٨١)

(٢) صفوة التفاسير ـ محمد بن علي الصابوني ـ (٢/ ٢٦١)

المحيط، كما أنها توقظ من الغفلة، وتخرج من الإعراض، ولذلك صلة بما سبق من السورة.[1]

ونرى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ساق الدليل على وحدانيته وقدرته، تأييدًا لما مضى من قوله:ـ " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا " والقرآن الكريم يجنح دائماً للأدلة الكونية،ويلفت النظر إلى هذا الكون وما فيه من عجائب ليعتبر الناس كلهم به، أما الجاهل فلما يراه فيه ببصره، ويسمع بأذنه ويلمس بيده، وأما العالم فلما يرى ويحس، ويعلم من أسرار وقضايا علمية، ونظريات كونية، وسبحان من هذا كلامه.[2]ومع كل تلك الدلائل فالكفار عنها في إعراض، لا يتفكرون، ولا يتعظون، وناسب ذلك الكلام على الموت. لما بين تعالى أنه ما جعل لبشر من قبل الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم دوام البقاء في الدنيا ناسب ذلك بيان أن كل من عليها فان، فكل نفس لابد أن تذوق الموت، فالله هو الذي يختبر عباده بالشدة والرخاء، والصحة والبلاء.[3]

الفوائد والعظات والعبر:ـ

١ـ إن القرآن ليس كتاب نظريات علمية، ولم يأت ليكون علمًا تجريبيًا كذلك، إنما هو منهج للحياة كلها، منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق في حدوده، ولتقويم المجتمع ليسمح للعقل بالعمل والانطلاق، دون أن يدخل في جزئيات وتفصيلات، علمية بحتة، فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه.[4]

٢ـ إن العقل البشري مستعد لدرس عجائب هذا الكون، ومعرفة سير هذه الكواكب ودورانها بنظام الجاذبية حول الشمس على سنن لا تتغير ولا تتبدل، وقد دل البحث على أنها كلها كانت مجموعة واحدة انفصل بعضها من بعض بأسباب خاصة قدرها العليم الخبير.وقد أرشد إلى بيان هذا خاتم الأنبياء محمد ابن عبد الله،

---

(١) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٧/ ٣٤٥٦)
(٢) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٢٩)
(٣) مصحف دار الصحابة في تناسب وتناسق الآيات ـ الشيخ مجدي فتحي السيد ـ (٣٢٥)
(٤) في ظلا ل القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٤)

ولم يكن قومه ولا الأمم المعاصرون لهم يفكرون فيه، مما يدل على أن ذلك وحي أوحي إليه من لدن عليم خبير، وقد كان هذا وحده كافيًا في الإسراع إلى تصديقه والإيمان برسالته لولا الجحد والإنكار وعمى في القلوب.[1]

٣ـ الابتلاء لا يتحقق إلا مع التكليف، فالآية دالة على حصول التكليف، وتدل على أنه سبحانه وتعالى لم يقتصر بالمكلف على ما أمر ونهى وإن كان فيه صعوبة، بل ابتلاه بأمرين:

أحدهما:ـ ما سماه خيرًا وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات.

والثاني:ـ ما سماه شرًا، وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام، وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين، فبين أن العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين، لكي يشكر على المنح ويصبر في المحن، فيعظم ثوابه إذا قام بما يلزم.[2]

المبحث الثاني :ـ موقف المشركين من النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

إن هؤلاء الكفار يكفرون بالرحمن، خالق الكون ومدبره، يستنكرون على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يذكر آلهتهم الأصنام بالسوء، بينما هم يكفرون بالرحمن،دون أن يتحرجوا أو يتلوموا. هو أمر عجيب جد عجيب!

---

(١) تفسير المراغي ـ أحمد المراغي ـ (١٧/ ٢٦)

(٢) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٤٦)

وإنهم ليلقون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالهزء، ويستنكرون عليه أن ينال من أصنامهم تلك:ـ ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ ولا يستكثرون على أنفسهم ـ وهم عبيد من عبيد الله ـ أن يكفروا به، ويعرضوا عما أنزل لهم من القرآن. وهي مفارقة عجيبة تكشف عن مدى الفساد الذي أصاب فطرتهم وتقديرهم للأمور ![1]

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ أي: كانوا يستعجلون، عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار[2] بالعبودية لله وبالرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم:ـ

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ الأنفال: ٣٢

فيقول الله لهم:ـ خلق الإنسان من عجل حتى كأن العجل جزء من مادة تكوينه، وهذا طبع في الإنسان كله وغريزة فيه، سأريكم آياتي الدالة على القدرة وعلى صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فلا تستعجلون، وقد رأوا ذلك في نصرة الدين، وإتمام نور الله ولو كره الكافرون.[3]

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ويقول المشركون:ـ على سبيل الاستهزاء والسخرية:ـ متى هذا العذاب الذي يعدنا به محمد إن كنتم يا معشر المؤمنين صادقين فيما أخبرتمونا.[4] وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء، فبين تعالى أنهم يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم ثم بين ما لهؤلاء المستهزئين،[5] فقال:ـ ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ ﴾ جواب الشرط هنا

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٩)

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ الزمخشري ـ رتبه وضبطه وصححه ـ محمد عبد السلام شاهين ـ دار الكتب العالمية ـ بيروت ـ ط٣ـ ٢٠٠٣ـ١٤٢٤هـ ـ (٣/ ١١٤)

(٣) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٣١)

(٤) صفوة التفاسير ـ الصابوني ـ (٢/ ٢٦٢)

(٥) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل ـ لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن ـ دار الفكر ـ (٤/ ٢٩٥)

محذوف، وتقديره:ـ لو يعلم الذين كفروا ما ينتظرهم من بلاء وعذاب يوم يأتيهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، لما استعجلوا ما أنذروا به من عذاب الله.[1]

وقوله:ـ ﴿ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ حين لا يكفون عن وجوههم النار يريد يوم القيامة. وذكر الوجوه خاصة لشرفها من الإنسان، وأنها موضع حواسه وهو أحرص على الدفاع عنه، ثم ذكر عموم النار لجميع أبدانهم.[2]

﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ أي: لا يدفع أحد عنهم.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أي: فجأة فتحيّرهم، لأنهم إن أرادوا الصبر عليها لم يقدروا عليه، وإن أرادوا ردّها ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أي: بسب من الأسباب ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي: يمهلون ليستريحوا طرفة عين لتمام مدة الإنظار قبله، ثم انتقل إلى تسليته عليه الصلاة والسلام عن استهزائهم، في ضمن وعيد لهم[3] بقوله تعالى:ـ ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ سُلِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به، بأن له في الأنبياء عليهم السلام أسوة، وأن ما يفعلونه به يحيق بهم، كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء عليهم السلام.[4] فالله تعالى يخبره:ـ أما أنت يا محمد فصبر جميل فهذه طبيعة الناس مع كل من يدعوهم إلى الخير والرضوان فقديمًا استهزءوا برسل الله قبلك، وفعلوا معهم الأفاعيل فكان جزاؤهم من الله أن أحاط بهم العذاب من كل جانب وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ونجى الله رسله ومن معهم من المؤمنين، وإن الله على نصرهم لقدير.[5]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٩٠)

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ـ لابن عطية الاندلسي ـ تحقيق المجلس العلمي بمكناس ـ بتاريخ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ـ (١١/ ١٣)

(٣) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ـ محمد جمال الدين القاسمي ـ (١٠/ ٤٢٧٣)

(٤) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٣٢)

(٥) المرجع نفسه ـ (٢/ ٥٣٢)

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول الله تعالى:ـ لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء المستعجلين بالعذاب، القائلين: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين:ـ ﴿ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ أيُّها القوم، يقول:ـ من يحفظكم ويحرسكم من الرحمن بالليل إذا نمتم، وبالنهار إذا تصرّفتم ؟(١) إنْ الله هو الحارس على كل نفس بالليل والنهار، وصفته هي الرحمة الكبرى، وليس من دونه راع ولا حام، فاسألهم:ـ هل لهم حارس سواه ؟(٢)

وفي الآية الكريمة إشارتان:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ قد جاءت بمعنى يمنعكم، ويحرسكم.وفي التعبير عن هذا بالكلاءة إشارة إلى أن الإنسان ـ مهما ملك من جاه وقوة وسلطان ـ هو كائن عاجز ضعيف، محتاج إلى قوة عليا، ترعاه، وتمده بأسباب الحياة والبقاء.

والإشارة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ قد جاءت هذه الصفة الكريمة من صفات الله سبحانه وتعالى، لتشير إلى واسع رحمته، وعظيم فضله، وأن هؤلاء المشركين الضالين، قد بالغوا في غيّهم، وضلالهم، ومحادتّهم لله ورسوله حتى إن رحمة الله ـ مع سعتها ـ تكاد تطردهم من رحاب فضلها ووجودها.(٣)

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ الطبري ـ (١٧/ ٣٩)

(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٣٠)

(٣) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٩٠١ـ٩٠٢)

قوله تعالى:ـ ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾أي: لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بل يعرضون عن آياته وآلائه.[1] أي أنه تعالى مع إنعامه عليهم ليلًا ونهاراً بالحفظ والحراسة، فهم عن ذكر ربهم الذي تدل عليه الدلائل العقلية والنقلية، ولطائف القرآن معرضون، فلا يتأملون في شيء منها ليعرفوا أنه لاكالئ لهم سواه، ويتركون عبادة الأصنام التي لاحظَّ لها في حفظهم ولا في الإنعام عليهم.[2]

وقوله تعالى:ـ ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ إعراض عن وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم بإسنادهم الحفظ إليها.[3] أي: بل ألهؤلاء المستعجلين عذابنا آلهة تمنعهم منا إن نحن أنزلناه بهم، وتدفع عنهم بأسنا إن حلَّ بساحتهم ؟ ومجمل ذلك ـ أن آلهتهم المزعومة لا تمنعهم بأسنا إن أردنا ؟

ثم وصف تلك الآلهة التي اتخذوها بالضعف فقال:ـ ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي: وكيف تستطيع آلهتهم أن تمنعهم منا،وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، ولا دفع ما ينزل بهم من البلاء، ولا هم يُصحبون منا بنصر، فكيف يتوهَّم أن ينصروا غيرهم. إنهم في غاية العجز، فكيف يُتوهَّم فيهم ما يتوهمون من القدرة والسلطان، ويدينون لهم بالخضوع والعبادة.[4]

وبعد هذا الجدل التهكمي الذي يكشف عن سخف ما يعتقده المشركون، وخوائه من المنطق والدليل. يضرب السياق عن مجادلتهم، ويكشف عن علة لجاجتهم، ثم يلمس وجدانهم لمسة تهز القلوب، وهو يوجهها إلى تأمل يد القدرة، وهي تطوي رقعة الأرض تحت أقدام الغالبين، وتقص أطرافها فتردهم إلى حيز منها منزو صغير، بعد السعة والمنعة والسلطان ![5]

---

(١) تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير ـ (٤/ ١٠١)
(٢) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٥٠)
(٣) روح المعاني ـ الآلوسي ـ (١٧/ ٣٧)
(٤) تفسير المراغي ـ أحمد المراغي ـ (١٧/ ٣٧)
(٥) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٣١)

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أما لهؤلاء المشركين آلهة تمنعهم من دوننا، ولا جار يجيرهم من عذابنا، إذا نحن أردنا عذابهم، فاتكلوا على ذلك، وعصوا رسلنا اتكالًا منهم على ذلك، ولكننا متعناهم بهذه الحياة الدنيا وآباءهم حتى طال عليهم العمر، وهم على كفرهم مقيمون، لا تأتيهم منا واعظة من عذاب ولا زاجرة من عقاب إلا وهم على كفرهم، وخلافهم أمرنا وعبادتهم الأوثان والأصنام، فنسوا عهدنا وجهلوا موقع نعمتنا عليهم، ولم يعرفوا موضع الشكر.[1]

فهو المتاع الطويل الموروث الذي أفسد فطرتهم، والمتاع ترف، والترف يُفسد القلب ويبلد الحس، وينتهي إلى ضعف الحس بمراقبة الله، وانطماس البصيرة دون تأمل آياته، وهذا هو الابتلاء بالنعمة حين لا يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها، ويصلها دائمًا بالله، فلا تنساه.[2]

وقوله: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله السائلون محمداً صلى الله عليه وسلم الآيات المستعجلون بالعذاب، أنا نأتي الأرض نخرّبها من نواحيها بقهرنا أهلها،وغَلَبَتنا لهم، وإجلائهم عنها، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به، ويحذروا منا أن ننزل من بأسنا بهم نحو الذي قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف؟[3]

فنحن نرى أن السياق يلمس وجدانهم بعرض المشهد الذي يقع كل يوم في جانب من جنبات الأرض، حيث تطوي رقعة الدول المغلوبة وتنحسر وتتقلص.

فإذا هي دويلات صغيرة وكانت إمبراطوريات، وإذا هي مغلوبة على أمرها وكانت غالبة.وإذا هي قليلة العدد وكانت كثيرة، قليلة الخيرات وكانت فائضة بالخيرات.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ الطبري ـ (١٧/ ٤٢)
(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٣١)
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ الطبري ـ (١٧/ ٤٢)

والتعبير يرسم يد القدرة وهي تطوي الرقعة، وتنقص الأطراف، وتزوي الأبعاد، فإذا هو مشهد ساحر الحركة اللطيفة، وفيه الرهبة المخيفة. ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾فلا يجري عليهم ما يجري على الآخرين ؟[1]

وبعد أن بَيَّنَ هول ما يستعجلون، وحالهم السيئة حين نزوله بهم، ثم نعى عليهم جهلهم وإعراضهم عن ذكر ربهم الذي يكلؤهم من طوارق الليل وحوادث النهار، أمر رسوله أن يقول لهم: إن ما أخبركم به جاء به الوحي الصادق[2] فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي: أعلمكم بما تخافون منه بوحي من الله لا من تلقاء نفسي، وما كان من جهة الله فهو الصدق الواقع لا محالة كما رأيتم بالعيان من نقصان الأرض من أطرافها ثم أخبر أنهم مع إنذارهم معرضون عما أنذروا به فالإنذار لا يجدي إذ هم صم عن الساعة.

ولما كان الوحي من المسموعات كان ذكر الصمم مناسبًا ﴿ ٱلصُّمُّ ﴾ هم المنذرون، لأن فيه التصريح بتصامهم وسَدِّ أسماعهم إذا أنذروا.[3]

والرسول صلى الله عليه وسلم يلقي هنا كلمة الإنذار، فليحذروا أن يكونوا هم الصم الذين لا يسمعون !فتطوى رقعة الأرض تحت أقدامهم، وتقص يد القدرة أطرافهم، وتتحيفهم وماهم من متاع.[4]

فهو تنبيه لهؤلاء المشركين الغافلين، الذين إذا ذكروا بآيات ربهم أعرضوا عنها، ولم يلتفتوا إلى ما يدعون إليه من هدى وخير.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى النبي الكريم ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، أن يقرعهم بتلك المقرعة الموجعة، حتى تتأثر لذلك قلوبهم القاسية، وتستشعر به مشاعرهم المتبلدة، وطباعهم الجافية الغليظة.[5]

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٣١)

(٢) تفسير المراغي ـ أحمد المراغي ـ (١٧/ ٣٨)

(٣) البحر المحيط ـ لأبي حيان الأندلسي ـ (٧/ ٤٣٤).

(٤) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٣٢).

(٥) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٩٠٥).

إن الكافر بالله لا يوجه همه إلى العظة بما في كتابه من المواعظ، حتى يقلع عماهو عليه، مقيم في الضلال، بل يعرض عن التفكير فيها فعل الأصم الذي لا يسمع ما يقال له حتى يعمل به.[1]

ويتابع السياق إيقاعه المؤثر في القلوب، فيصورهم لأنفسهم حين يمسهم العذاب: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

والنفحة تطلق غالبًا في الرحمة، ولكنها هنا تطلق في العذاب، كأنما يقال:ـ إن أخف مسة من عذاب ربك تطلقهم يجأرون بالاعتراف، ولكن لا يجدي الاعتراف،[2]والمعنى: لئن مسهم شيء قليل من عذاب الله كالرائحة من الشيء دون جسمه، لتنادوا بالويل واعترفوا على أنفسهم بالظلم.[3]

فلقد سبق في سياق السورة مشهد القرى التي أخذها بأس الله، فنادى أهلها.

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

إذن فهو الاعتراف بعد فوات الأوان، والخير منه أن يسمعوا نذير الوحي وفي الوقت متسع، قبل أن تمسهم نفحة من العذاب![4]

المناسبة بين المقطع وما قبله :.

هناك وجوه مناسبة بين المقطع وما قبله تبرز في الآتي:ـ

١ـ نلا حظ أن السورة ابتدأت بقوله تعالى:ـ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ ونلاحظ أن كلمة الإعراض تكررت أكثر من مرة في السورة ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن

---

(١) تفسير المراغي ـ أحمد المراغي ـ(١٧/ ٣٩).
(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٣٢).
(٣) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٥٢).
(٤) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٣٢)

﴿ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾﴾ إنها مجموعة صور للإعراض يذكرها السياق: إعراضهم عن التدبر، إعراضهم عن الإجابة على السؤال المذكر لهم بالله. وكل ذلك يقرر عدم استفادتهم من الإنذار بسبب منهم.

هذا الإعراض سببه تصورا تُهُم الفاسدةُ عَنْ موضوعِ الرسالةِ والرسولِ، أو آراؤهم الفاسدةُ عن موضوع الإلوهية وقد ردّ الله عليهم ذلك كله، وأعلم الحق فيه لتقوم الحجة عليهم كاملة. وكل ذلك بلغة التذكير، فالسورة نموذج على كون هذا القرآن ذكرًا.[1]

٢ـ بعد ما بينت لنا الآيات جزاء المستهزئين بالرسل، ناسب أن يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء الكفار المستهزئين بك، وبما جئت به: من يحفظكم بالليل والنهار إن نزل بكم عذاب الرحمن ؟! بل حقيقة أمرهم أنهم عن القرآن ومواعظه لاهون غافلون، فأنى لهم أن يؤمنوا ؟!

أم لهم آلهة من دون الله، تمنعهم من عذابه، إن آلهتهم عاجزة، لا قيمة لها. فهي لا تستطيع نصر نفسها، فكيف تنصر عابديها ؟! إن هؤلاء من عذاب الله لا يمنعون.

ثم ناسب ذلك التوبيخ، وهذا التهكم ذكر أن الله متع هؤلاء الكفار وآباءهم في الدنيا، فأمهلهم حتى طال بهم الزمان، فاغتروا، وأعرضوا، وناسب ذلك دعوتهم للتأمل ولو تأملوا لرأوا أن الله تعالى ينقص من ديار الكافرين، ويزيد في ديار المؤمنين بظهور الإسلام، وفتح البلدان، أفهم الغالبون بعد ذلك ؟! بل هم مغلوبون مقهورون.[2]

الفوائد والعظات والعبر:

١ـ إن الله هو الحارس على كل نفس بالليل والنهار، وصفته هي الرحمة الكبرى، وليس من دونه راع ولا حام.[3]

---

(١) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٧/ ٣٤٦٤ـ٣٤٦٥)

(٢) مصحف دار الصحابة في تناسب وتناسق الآيات ـ مجدي فتحي السيد ـ (٣٢٥ـ٣٢٦).

(٣) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٣١)

٢ـ لايغر تقلب الذين كفروا في النعيم، وما هم فيه من غنى وجاه، فهو متاع أعطاهم الله إياه، ليس لأحد فيه يد، وليس هناك مانع يمنع الله من إيقاع العذاب بهم، بل متعهم الله به حتى تطول أعمارهم، وتقسو قلوبهم، وتسوء أعمالهم، ويكون حسابهم شديدًا، وجزاؤهم نارًا وحميمًا، وليس تركهم عن عجز أو تقصير [١].

٣ـ تبين لنا الآيات سرعة تأثر هؤلاء المشركين، بأقل شيء من العذاب الذي كانوا يستعجلونه، وأنهم إذا ما نزل بهم شيء منه، أصيبوا بالهلع والجزع، وتنادوا بالويل والثبور والاعتراف بالظلم وتجاوز الحدود [٢].

٤ـ إن الله سينتقم من الكافرين، وسيحاسبهم، وأن هؤلاء مغرورون، فهم ضعفاء جبارون، وأن سبب غرورهم هو إمداد الله لهم، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقيم عليهم الحجة بأكثر من معنى: في عجز آلهتهم وفي انتصارات المسلمين في المآل وفي قوة الوحي وأحقية القرآن المجيد.[٣]

المطلب الثاني.... عدل الخالق:ـ

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الأنبياء: ٤٧

لا غرابة في عذاب هؤلاء المشركين، والتشديد عليهم، والتنكيل بهم، فالله حكم بذلك، وحكمه العدل، وهو صاحب الميزان القسط، وهو الذي يقول:ـ ونضع الموازين العادلة يوم القيامة، وهل هناك موازين حقيقية توزن بها الأعمال بعد تجسيمها ؟ أم هي موازين توزن بها الأمور المعنوية كما توزن بموازيننا الأمور الحسية؟[٤] ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ وصفها الله تعالى بذلك، لأن الميزان قد يكون مستقيمًا، وقد يكون بخلافه، فبين أن تلك الموازين تجري على حد العدل والقسط،

---

(١) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٣٣)

(٢) التفسير الوسيط ـ محمد سيد طنطاوي ـ مصدر الكتاب: موقع التفاسير ـ http://www.altafsir.com ـ (١/ ٢٩٠٥)

(٣) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٧/ ٣٤٦٤)

(٤) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٣٥)

وأكد ذلك.[1] بقوله: ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ ووضع الموازين:ـ إقامتها، ونصبها لتوزن أعمال الناس فيها..

وحبة الخردل:ـ حبة ضئيلة لا تكاد تمسك بها الأصابع.

والآية الكريمة:ـ نذير لأولئك المشركين، الذين أشركوا بالله، وأعرضوا عن ذكر الرحمن، وظنوا أنهم في حمى من بأس الله، بجاههم ومتاعهم.

وهب أنهم قطعوا العمر في لهو ولعب، ونعموا بما في أيديهم من مال وبنين، فإنهم لابد ميتون، ثم إنهم لمبعوثون، ومحاسبون على ما عملوا من سوء. فهناك حساب وجزاء، حيث تجد كل نفس ماعملت من خير محضرًا، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا.[2]

والحبة من الخردل تصور أصغر ما تراه العيون وأخفه في الميزان، وهي لا تترك يوم الحساب ولاتضيع، والميزان دقيق يشيل بها أو يميل.

فلتنظر نفس ما قدمت لغد، وليصغ قلب إلى النذير، وليبادر الغافلون المعرضون المستهزئون قبل أن يحق النذير في الدنيا أو في الآخرة، فإنهم إن نجوا من عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة الذي تعد موازينه، فلا تظلم نفس شيئًا، ولا يهمل مثقال حبة من خردل.[3]

ـ وفي قوله تعالى:ـ ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

إشارة إلى عدل الله سبحانه وتعالى وإلى ضبطه لأعمال الناس، ومحاسبتهم عليها، دون أن يفلت أحد من هذا الحساب، أو يقع في حسابه خطأ، ولو كان مثقال حبة من خردل... فسبحان من وسع كل شيء علمًا.[4]

والغرض منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه

---

(١) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٥٢)

(٢) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٩٠٧).

(٣) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٣٣).

(٤) التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ (٥/ ٩٠٧).

عليه شيء، في القدرة بحيث لايعجزه شيء حقيق بالعاقل أن يكون في أشد الخوف منه.[1]

المناسبة بين المقطع وما قبله :ـ

بعد ذلك الشوط البعيد المديد في أرجاء الكون، وفي نواميس الوجود، وفي سنن الدعوات، وفي مصائر البشر، وفي مصارع الغابرين، يرتد السياق إلى مثل مابد أبه في مطلع السورة عن استقبال المشركين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما معه من الوحي، واستهزائهم به وإصرارهم على الشرك.[2]

ثم ذَمَّ الله الإنسان على العجلة، والمراد هاهنا الاستعجال المذموم، المذكور على سبيل الاستهزاء، وناسب ذلك بيان ما لصاحب هذا الاستهزاء من العقاب الشديد، وذلك في الدار الآخرة.

وأما في الدنيا فلولا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا في السلامة، ولذا ناسب أن يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء الكفار المستهزئين بك، وبما جئت به:ـ من يحفظكم بالليل والنهار إن نزل بكم عذاب الرحمن ؟ بل حقيقة أمرهم أنهم عن القرآن ومواعظه لاهون غافلون، فأنى لهم أن يؤمنوا؟.[3] فيحذرهم ما يستعجلون به، وينذرهم عاقبة الاستهزاء بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن نرى أن الآيات سجلت موقفين للكافرين:ـ

تمني موت رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاستهزاء به وبأقواله، وعالجت كلًا من الموقفين مفندة له محذرة أهله، ومنذرة لهم وواصفة لهم ما الذي أمامهم.[4]

وتأتي الآيات بعد ذلك مبينة لنا أن استهزاء هؤلاء الكفار ليس جديدًا في تاريخ البشرية مع الرسل، بل هو حال الكفار مع أنبياء الله. وتبين لنا الآيات ما هو الموقف

---

(١) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٥٤).
(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٢٩)
(٣) مصحف دار الصحابة ـ الشيخ مجدي فتحي السيد ـ (٣٢٥)
(٤) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٧/ ٣٤٦١).

المكافىء لموقف الكافرين الذي سجّلته الآيات السابقة، وهو أن الكافرين يستهزئون بالرسول ودعوته، ووعيده لهم وإنذاره، وههنا يبين الله عز وجل الموقف المكافئ لذلك، وهو: أن يعلم الرسول ثم من بعده من أمته، أن الاستهزاء بالرسل دأب الكافرين في كل زمان، وأن الله سينتقم، وأن الله سيحاسب، وأن هؤلاء مغرورون، ضعفاء جبارون، وأن سبب غرورهم هو إمداد الله لهم، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقيم عليهم الحجة بأكثر من معنى:ـ

في عجز آلهتهم وفي انتصارات المسلمين في المآل وفي قوة الوحي وأحقية القرآن.[1]

ثم ناسب ذلك التوبيخ، وهذا التهكم ذكر أن الله متع هؤلاء الكفار وآباءهم حتى طال بهم الزمان، فاغتروا، وأعرضوا، وناسب ذلك دعوتهم للتأمل، ولو تأملوا لرأوا أن الله تعالى ينقص من ديار الكافرين، ويزيد في ديار المؤمنين بظهور الإسلام وفتح البلدان، أفهم الغالبون ؟ بل هم مغلوبون مقهورون.

وتستمر آيات الوعيد للكافرين، فيخوفهم بذكر وضع الموازين للعدل يوم القيامة، فلا ينقص من ثواب أحد، ولايزاد في سيئاته، وإن كان الشيء الموزون صغيراً جدًا يزن مثقال حبة من خردل، أحضرها الله ليجازي بها، وكفى بالله تعالى عالمًا وحافظا.[2]

وهكذا ترتبط موازين الآخرة الدقيقة، بنواميس الكون الدقيقة، بسنن الدعوات، وطبائع الحياة والناس، وتلتقي كلها متناسقة موحدة في يد الإرادة الواحدة مما يشهد لقضية التوحيد وهو محور السورة الأصيل.[3]

الفوائد والعظات والعبر:ـ

١ـ في قوله تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾

---

(١) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (٧/ ٣٤٦١).

(٢) مصحف دار الصحابة ـ الشيخ مجدي فتحي السيد ـ (٣٢٦).

(٣) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٣٣).

المراد بالإنسان قولان:ـ

أحدهما:ـ النوع.

والثاني:ـ أنه شخص معين.

أما القول الأول:ـ فتقريره أنهم كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ فأراد زجرهم عن ذلك، فقدم أولًا:ـ ذم الإنسان على إفراط العجلة ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال: لا يبعد منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم.

أما القول الثاني: وهو أن المراد شخص معين، فهذا فيه وجهان:ـ

أحدهما: أن المراد آدم عليه السلام.

وثانيهما: أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث والمراد بالإنسان هو النضر نفسه.

ويبدو أن القول الأول أولى، لأن الغرض ذم القوم، وذلك لا يحصل إلا إذا حملنا لفظ الإنسان على النوع.[1]

٢ـ استعجال الكافرين للعذاب، مع أنهم لو علموا كنهه ما طلبوه، وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء، وهو كقوله: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ العنكبوت: ٥٣ ـ فبين تعالى أنهم يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم.[2]

٣ـ بيان أن العذاب يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون، وهذه المباغتة جزاء الاستعجال، فلقد كانوا يقولون:ـ

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ فكان الرد هو هذه البغتة التي تذهل العقول، وتشل الإرادة، وتعجزهم عن التفكير والعمل، وتحرمهم مهلة

---

(١) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ (١١/ ١٤٨)

(٢) نفس المرجع ـ (١١/ ١٤٨)

الأنظار والتأجيل.ذلك عذاب الآخرة، فأما عذاب الدنيا فقد حَلَّ بالمستهزئين قبلهم، فإذا كان هؤلاء لم يقدر عليهم عذاب الاستئصال، فعذاب القتل والأسر والغلب غير ممنوع، وليحذروا الاستهزاء برسولهم، وإلا فمصير المستهزئين بالرسل معروف، جرت به السنة التي لا تتخلف وشهدت به مصارع المستهزئين.[1]

٤ـ في قوله تعالى:﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ أي:ونضع الموازين العدل ليوم القيامة، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.[2] وقوله:﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ كما قال لقمان لابنه:ـ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ لقمان: ١٦.

١ـ في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ (٥/ ٣٠)

٢ـ تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ (٤/ ١٠٢)

الفصل الثاني

أمة النبيين

إن منهجية ترتيب الأنبياء قائمة على أساس مفهوم الامتداد البشري الصحيح، ومن هنا بدأ الترتيب بموسى وهارون، باعتبار أن مرحلة موسى وهارون هي أعظم مراحل بني إسرائيل.حيث بدأها موسى بإخراج بني إسرائيل من عبودية فرعون.. وأَتمَّها هارون كأعظم أمة عددية بعد أمة النبي صلى الله عليه وسلم.فكان موسى وهارون هم دليل الصحة والامتداد.

ثم كان إبراهيم الذي حقق - وحدة مفهوم الأمة بوجوده على التوحيد.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل: ١٢٠

ثم كان إسحاق ويعقوب اللذان يمثلان الامتداد البشري لإبراهيم.

ثم كان لوط الذي حارب داء الانقطاع البشري. داء الشذوذ.

ثم كان داود وسليمان اللذان يمثلان تمام الصورة البشرية. بصفة شخصية وهما يمثلان مرحلة الأمة الصحيحة الممكنة بحكم وملك.

ثم أيوب...، ليتحقق امتداد جديد للأمة الواحدة.

ثم كان إسماعيل...، ليكون بداية نسل محمد ﷺ.

ثم كان إدريس ليمثل البقاء البشري المرتفع حتى يوم القيامة.

ثم كان ذو الكفل، نسل أيوب الذي كان لا يغضب، ليضمن العدل في الحكم بين الناس، فأصبح يمثل مهمة القضاء بين الناس، وهو محصلة الأساسيات الثلاث لبقاء الأمة، (الشريعة والسلطة والحق).

ثم كان يونس الذي يمثل غلبة القضاء الإلهي بإنشاء أمة الامتداد الصحيح،

بصورة تفوق الأسباب وتعلو عليها، وذلك حينما يذهب يونس مغاضبًا ليعود وقد آمن قومه كلهم أجمعون.

وبعد ذلك كان زكريا ليرث آل يعقوب، ثم يدعو الله من أجل امتداد الحق وميراث النبوة بيحيى الذي يرث زكريا الوارث لنبوة بني إسرائيل.مريم وعيسى ليجتمعا مع أمة النبي محمد ﷺ وشمل الذي يمثل حلقة الوصل بين بني إسرائيل وأمة محمدﷺ حيث سيكون من الأمة الأولى ثم يعود للأمة الثانية في آخر الزمان.محمد ﷺ، وهو اللبنة التي تم بها بناء الأمة الواحدة الممتدة امتدادًا صحيحًا حتى قيام الساعة.[1]

المبحث الأول: استعراض قصص الأنبياء

تستعرض الآيات في هذا المقطع أمة الرسل، لا على وجه الحصر، تشير إلى بعضهم إشارة، وتفصل الآيات عند ذكر بعضهم تفسيرًا مطولًا ومختصرًا.

القصة الأولى: قصة موسى وهارون عليه السلام:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

أي: ولقد أعطينا موسى وهارون التوراة الفارقة بين الحق والباطل والهدى والضلال نورًا وضياءً وتذكيرًا للمؤمنين المتقين ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي: هم الذي يخافون الله ولم يروه؛ لأنهم عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربًا عظيمًا قادرًا يجازي على الأعمال فهم يخشونه وإن لم يروه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي: وهم من أهوال القيامة وشدائدها خائفون وجلون.[2]

---

(١) علامات الساعة – رفاعي سرور – دار الفرقان للتراث – بدون تاريخ ـ (١٥٢-٥٣)

(٢) صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني – (٢ / ٢٦٤).

وقد كانت التوراة كذلك هدى وضياء وذكرى، قبل أن يحرفوا كلمها عن مواضعه، ويغيروا ويبدلوا فيها. وكما أنزل الله على موسى وهارون الفرقان فكذلك أنزل عليك يا محمد القرآن، وها أنا أنذركم بما فيه، ولست بدعًا فالأنبياء قبلي كانت لهم كتب كالتوراة وغيرها.

وهذا القرآن ذكر مبارك ونور وهداية، فيه الخير والهدى والعلم والمعرفة، وفيه النجاة والسعادة، والفوز والفلاح.[1] ذلك شأن موسى وهارون: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ فليس بدعًا ولا عجبًا، إنما هو أمر مسبوق وسنة معروفة ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ فماذا تنكرون منه، وقد سبقت به الرسالات.[2]

القصة الثانية: قصة إبراهيم عليه السلام

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا

---

(١) التفسير الواضح – محمد حجازي – (٢ / ٥٣٧).

(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٣٧).

فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

إبراهيم خليل الله وأبو الأنبياء، ذكر في القرآن كثيرًا لعدة أغراض، وكان قومه أهل أوثان، وكان أبوه نجارًا، يصنع الأصنام ويبيعها للناس، وأما إبراهيم فقد صنعه الله على عينه، ورباه على يده، وهداه إلى الرشد فعلم أن الأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تعني شيئًا، وما هي إلا خشبة أو حجر صنعها أبوه أمامه بالقدوم.[1]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

فكانت قولته هذه دليل رشده. سمى تلك الأحجار والخشب باسمها: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ﴾ ولم يقل:- إنها آلهة، واستنكر أن يعكفوا عليها بالعبادة، وكلمة ﴿ عَٰكِفُونَ ﴾ تفيد الانكباب الدائم المستمر، وهم لا يقضون وقتهم كله في عبادتها، ولكنهم يتعلقون بها، فهو عكوف معنوي لا زمني، وهو ليسخف هذا التعلق ويبشعه بتصويرهم منكبين أبدًا على هذه التماثيل.[2]

فكان جوابهم وحجتهم أنهم قالوا: ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾. أي: نعبدها تقليدًا لأسلافنا [3]، وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة، في مقابل الإيمان، وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية.[4]

إنه ليس حجة أن يضل إنسان لأن من كان قبله على ضلال، وما جدوى أن

---

(١) التفسير الواضح – محمد حجازي – (٢ / ٥٣٩).

(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٣٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م – (٦ / ١٩٧).

(٤) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٣٨).

يكون للإنسان عند ذلك.ولم إذن يستعمل الإنسان عينيه، ولا يستغني عنهما في التعرف على الأشياء حوله ؟

إن هذا المنطق يقضي بأن يغمض عينيه، ولا يستغني عنهما في التعرف على الأشياء حوله؟ إن هذا المنطق يقضي بأن يغمض عينيه، ثم يضع يده على كتف أي ذي عينين، ليقوده ويتبع خطاه !

هكذا في تهكم وسخرية، يلقون هذا المنطق المشرق، وهكذا يستقبلون الجد بهذا الهزل الأحمق.[1]

فرد إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

فردوا عليه بقولهم: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ بقوا متعجبين من إصراره على إبطال معبوداتهم، وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة، لا على طريق الجدّ، فقالوا له: هذا الذي جئتنا به، أهو جدّ وحق، أم لعب وهزل ؟[2]

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

الضمير في " فطرهن " للسماوات والأرض، أو للتماثيل، وكونه للتماثيل أدخل في مجادلتهم وأثبت للاحتجاج عليه، وشهادته على ذلك.. إدلاؤه بالحجة عليه، وتصحيحه بها كما تصحح الدعوى بالشهادة، كأنه قال.. وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه كما تبين الدعاوى بالبينات، لأني لست مثلكم، فأقول ما لا أقدر عليه على إثباته بالحجة، كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم، ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءَكم.[3] إنه واثق وثوق الذي يشهد على واقع لا شك فيه:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

وإبراهيم عليه السلام – لم يشهد خلق السماوات والأرض، ولم يشهد خلق نفسه

---

(١) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩١٢ – ٩١٣).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – الزمخشري – (٣ / ١١٩).

(٣) نفس المرجع – (٣ / ١١٩).

ولا قومه، ولكن الأمر من الوضوح والثبوت إلى حد أن يشهد المؤمنون عليه واثقين، إن كل ما في الكون لينطق بوحدة الخالق المدبر، وإن كل ما في كيان الإنسان ليهتف به إلى الإقرار بوحدانية الخالق المدبر وبوحدة الناموس الذي يدبر الكون ويصرفه.

ثم يعلن إبراهيم لمن كان يواجههم من قومه بهذا الحوار أنه قد اعتزم في شان آلهتهم أمرًا لا رجعة فيه: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ فإن القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلانية عدل إلى أن أراهم عدم الفائدة في عبادتهم [1]

فقد أسرّ إبراهيم في نفسه، وأراد أن يريهم هذا القول في صورة عملية، بعد أن لم يجد القول آذانًا تسمع، أو قلوبًا تعي.فهذا الأسلوب الذي يمكن أن يعامل به الأطفال، وصغار العقول من الرجال.

وقد صدّر إبراهيم النية التي نواها في شأن الأصنام، بالقسم، حتى يؤكد هذه النية التي صح عليها رأيه في هذا الموقف، وحتى لا يرجع عنها إذا هو زايل عن موقفه هذا، وبردت حرارة الموقف !

والكيد للأصنام، هو إعمال حيلة، وإحكام التدبير فيما يريده بها.[2]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ وهكذا كان إبراهيم عليه السلام، لقد دخل على مرابض الأصنام في غفلة من عابديها، ثم أعمل فيها يده تحطيمًا، وتكسيرًا، حتى جعلها " جذاذًا " أي قطعًا صغيرة متناثرة، إلا كبير هذه الأصنام، فإنه أبقى عليه، لأمر أراده، سيكشف عنه فيما بعد[3] وفي هذا يقول الله تعالى في سورة الصافات:-

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾
الصافات: ٩١ ــ ٩٣

---

(١) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١ / ١٥٩).
(٢) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩١٣).
(٣) نفس المرجع – (٥ / ٩١٣ – ٩١٤).

(لعلهم إليه يرجعون)فيسألونه كيف وقعت الواقعة وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة !

ولعلهم حينئذ يراجعون القضية كلها، فيرجعون إلى صوابهم، ويدركون منه ما في عبادة هذه الأصنام من سخف وتهافت.

وعاد القوم ليروا آلهتهم جذاذًا إلا ذلك الكبير! ولكنهم لم يرجعوا إليه، يسألونه ولا على أنفسهم يسألونها:- إن كانت هذه آلهة فكيف وقع لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئًا، وهذا كبيرها كيف لم يدفع عنها ؟ ولم يسألوا أنفسهم هذا السؤال؟

لأن الخرافة قد عطلت عقولهم عن التفكير، ولأن التقليد قد غَلَّ أفكارهم عن التأمل والتدبر، فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعي لينتقموا على من حطم آلهتهم، وصنع بها هذا الصنيع:- [1]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ قالوا:- حين رجعوا: (من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) بجرأته على الآلهة الحقيقة بالإعظام، أو بإفراطه في حطمها أو بتوريط نفسه للهلاك.[2] ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾

(قالوا) أي: بعضهم لبعض، (سمعنا) ولم يريدوا تعظيمه، مع شهرته وشهرة أبيه وعظمتها فيهم، ليجترىء عليه من يعرفه فنكروه بقولهم:- " فتى " أي: شابًا من الشبان.

(يذكرهم) أي: بالنقص والعيب " يقال له إبراهيم " يعنون: فهو الذي يظن أنه فعله.[3]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٣٩).
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي – البيضاوي – (٢ / ٦٦٩).
(٣) نظم الدرر – البقاعي – (٩٢).

وجاؤوا بإبراهيم ووضعوه موضع المساءلة والاتهام، على أعين الناس، وبمشهد من الجموع الحاشدة، التي هزها هذا الحدث العظيم![1]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ فهم ما يزالون يصرون على أنها آلهة وهي جذاذ مهمشة، فأما إبراهيم فهو يتهكم بهم ويسخر منهم، وهو فرد وحده وهم كثير، ذلك أنه ينظر بعقله المفتوح وقلبه الواصل فلا يملك إلا أن يهزأ بهم ويسخر، وأن يجيبهم إجابة تناسب هذا المستوى العقلي الدون.[2]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

بهذا الأسلوب الساخر رد عليهم. فالتهكم واضح في هذا الجواب الساخر، فلا داعي لتسمية هذه كذبة من إبراهيم – عليه السلام – والبحث عن تعليلها بشتى طرق والعلل التي اختلف فيها المفسرون.

فبهذا الأسلوب أجاب إبراهيم – عليه السلام – على اتهام القوم له، أنا لم أفعل هذا بتلك الأصنام، بل الذي فعله، هو كبيرهم هذا، الذي ترونه قائمًا على هذه الأشلاء ! لقد قامت بينه وبين أتباعه معركة، وليس هذا ببعيد، فما أكثر ما يقع الخلاف به تتبعه الضربة القاضية، وليس من المستبعد إذن أن يكون قد وقع خلاف بين هذا الصنم الكبير، وبين أتباعه، فأخذهم ببأسه، ونكّل بهم هذا التنكيل الذي ترون !

فإن كنتم لا تصدقون[3] ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ حتى يخبروا من فعل ذلك بهم[4]، فاسألوا الآلهة من فعل بها ذلك وكسرها ! إن كانت تنطق أو تعبر عن نفسها.[5]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩١٤).

(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٤٠).

(٣) التفسير القرآني للقرآن الكريم – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩١٤ – ٩١٥).

(٤) تفسير البغوي، المعروف بمعالم التنزيل – لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي ت ٥١٦ هـ – دار الفكر – بدون تاريخ – (٤/ ٢٩٩).

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – الطبري – (١٧ / ٥٤).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

فلما حاروا وبهتوا من إجابة إبراهيم ومناقشته لهم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا:إنكم أنتم الظالمون[1]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

أي: اكتشفوا ضلالهم وعلموا أن الأصنام لا تنطق، فساءهم ذلك حين نبه على قيام الحجة عليهم، وهي استعارة للذي يرتطم في غيه كأنه منكوس على رأسه وهي أقبح هيئة للإنسان، فكأنّ عقله منكوسٌ أي:مقلوبٌ لانقلاب شكله، وجعل أعلاه أسفله في رجوعهم إلى أنفسهم كناية عن استقامة فكرهم ونكسهم كناية عن مجادلتهم ومكابرتهم.[2]فقالوا:- لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. وليس ذلك رجوعًا عما كانوا عرفوا، بل هو إقرار به.[3]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

لما بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن قوم إبراهيم قالوا:كيف تطلب منا سؤالهم ؟ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون !! قال إبراهيم مقاطعًا ومفحمًا لهم فيما يتقولون:-أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئًا من النفع ولا يضركم شيئًا من الضرر، إذ إنه لا يقدر على الكلام أصلًا، ولم يمكنه أن يدفع عن نفسه شيئًا ؟!! أف لكم !! ولما تعبدون من دون الله، أعميتم أفلا تعقلون شيئًا أبدًا ؟!![4]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

هذا موقف العاجز، لأنه لا يملك إلا أن يتحول إلى حيوان، ينطح بقرونه، وينهش بمخالبه وأنيابه !

---

(١) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٤٢)

(٢) البحر المحيط – لأبي حيان الأندلسي – (٧/ ٤٤٩).

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – الطبري – (١٧ / ٥٦)

(٤) التفسير الواضح – محمد حجازي – (٢ / ٥٤٢).

لقد اتهموا إبراهيم، وأدانوه، وأصدروا حكمهم عليه:- " حرقوه " هكذا بكلمة واحدة يقضون قضاءهم فيه.[1]

فلما أعيتهم الحيل كلها في إبراهيم وإسكاته، وضاقت عليه الأرض بما رحبت.

قالوا:- لا ينفعه أبدًا إلا الموت، ولا يريحنا منه إلا هلاكه، وليكن هلاكه على أفظع صورة، وبأقبح شكل، وهو إحراقه بالنار، فإذا تم ذلك كان لكم النصر ولآلهتكم الفوز، إن كنتم فاعلين شيئًا حقًا فافعلوا هذا.[2](قالوا: حرقوه) ولكن كلمة أخرى قد قيلت، فأبطلت كل قول، وأحبطت كل كيد، ذلك أنها الكلمة العليا التي لا ترد:قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ فكانت بردًا وسلامًا على إبراهيم، كيف ؟ إن الذي يقيسون أعمال الله سبحانه إلى أعمال البشر هم الذين يسألون:- كيف كان هذا ؟ وكيف أمكن أن يكون ؟ فأما الذين يدركون اختلاف الأمرين، واختلاف الأداتين، فإنهم لا يسألون أصلًا، ولا يحاولون أن يخلقوا تعليلًا، علميًا أو غير علمي، فالمسألة ليست في هذا الميدان أصلًا.

ليست في ميدان التعليل والتحليل بموازين البشر ومقاييس البشر، وكل منهج في تصور مثل هذه المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهج فاسد من أساسه، فقال لها: يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم فلم يشعر إبراهيم بشيء أبدًا يؤلمه،بل ظل يسبح بحمد الله، ويشكر فضل الله الذي لا ينساه حتى خبت النار ولم يمس بسوء.وهكذا تكون عناية الله، ورعايته للأنبياء والأولياء والصالحين من عباده، ألم تر إلى قريش وقد جمعت جموعها، وتشاورت في أمرها، واتفقت فيما بينها على أن تقتل محمدًا صلى الله عليه وسلم، ولكن أين لهم هذا !![3] والله تعالى يقول:- ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ المائدة: ٦٧

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

---

(١) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩١٨).

(٢) التفسير الواضح – محمد حجازي – (٢ / ٥٤٢).

(٣) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٤٢).

أي: أرادوا أن يكيدوه فما كانوا إلا مغلوبين، غالبوه بالجدال فلقنه الله تعالى الحجة المبكتة، ثم عدلوا إلى القوة والجبروت فنصره وقواه عليهم، ثم إن سبحانه أتم النعمة عليه، بأن نجاه ونجى لوطًا وهو ابن أخيه، إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين.

وفي الأخبار أن هذه الواقعة كانت في حدود بابل، فنجاه الله تعالى من تلك البقعة إلى الأرض المباركة، ثم قيل إنها مكة وقيل أرض الشام لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ الإسراء: ١

والسبب في بركتها:- أما في الدين فلأن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا فيها، وانتشرت شرائعهم وآثارهم الدينية منها، وأما في الدنيا فلأن الله تعالى بارك فيها بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب العيش.[1]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى ما أفاضه من النعم على إبراهيم عليه السلام فقال:-

١- (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) أي: ووهبنا لإبراهيم إسحاق ولدًا، ويعقوب ولد الولد، عطية منا وفضلًا، لا جزاء مستحقًا.

٢- (وكلًا جعلنا صالحين) أي: وجعلنا من إبراهيم وإسحاق ويعقوب مطيعًا لربه، مجتنبًا محارمه.

٣- (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) أي: وجعلناهم أئمة يدعون الناس إلى دين الله تعالى، وإلى الخيرات بأمرنا وإذننا.

٤- (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) أي وأوحينا إليهم فيما أوحينا، أن افعلوا الطاعات، واتركوا المحرمات.

٥- (و إقام الصلاة وإيتاء الزكاة) أي: وأوحينا إليهم، أن أقيموا الصلاة وآتوا

---

(١) مفاتيح الغيب - الرازي - (١١ / ١٦٤).

الزكاة، وقد خصهما بالذكر من بين سائر العبادات، لأن الصلاة أشرف العبادات البدنية، والزكاة أفضل العبادات المالية، والمال شقيق الروح، ومجموع العبادتين تعظيم الخالق والشفقة على المخلوق.[1]

وكانوا لنا موحدين ومخلصين في العبادة.[2]

القصة الثالثة: قصة لوط عليه السلام

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

وتشير الآيات هنا إلى قصة لوط، فهو قد صحب عمه إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الشام، وأقام في قرية سدوم، وكانت تعمل الخبائث، وهي إتيان الفاحشة مع الذكور جهرة وبلا حياء أو تحرج، فأهلك الله القرية وأهلها:-(إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) وأنجى لوطًا وأهله إلا امرأته.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ كأنما الرحمة مأوى وملاذ يدخل الله فيه من يشاء فإذا هو آمن ناعم مرحوم.[3]

والآيات تذكر ما أنعم الله به على لوط:-

١- ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا ﴾ أي: وآتينا لوطًا الحكم، وهو حسن الفصل بين الخصوم في القضاء.

٢- ﴿ وَعِلْمًا ﴾ بأمر دينه وما يجب عليه لله من واجب الطاعة.

٣- ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ أي: ونجيناه من عذابنا الذي أحللناه بأهل تلك القرية التي كانت تعمل خبائث الأعمال، التي من أشنعها إتيان البيوت من غير أبوابها.

---

(١) تفسير المراغي - أحمد المراغي - (١٧ / ٥٣).
(٢) صفوة التفاسير - محمد الصابوني - (٢ / ٢٦٨).
(٣) في ظلال القرآن - سيد قطب - (٥ / ٤٤).

ثم بين السبب الذي دعاهم إلى ذلك فقال:-

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ أي: إن الذي حملهم على ذلك وجرأهم على ارتكابه أنهم كانوا خارجين عن طاعة الله، منتهكين حرماته، قد دسّوا أنفسهم بقبيح الأفعال والأقوال، فلا عجب إذا هم لجوا في طغيانهم يعمهون.

٤- ﴿ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ﴾ أي: وجعلناه في جملة من يستحقون رحمتنا ولطفنا، بإدخاله جنتنا.(١)

القصة الرابعة: قصة نوح عليه السلام

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ وهنا تشير الآيات إلى نوح إشارة سريعة لا تفصيل فيها:-

وذلك لإثبات استجابة الله لنوح – عليه السلام – حين ناداه (من قبل) وهو سابق لإبراهيم ولوط، ولقد أنجاه الله وأهله كذلك.إلا امرأته، وأهلك قومه بالطوفان وهو (الكرب العظيم)(٢)

وتبين الآيات سبب حلول العذاب بقوم نوح:-

(إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين)

لأنهم كانوا يسيئون الأعمال، فيعصون الله ويخالفون أوامره، ويتصدّون لأذى نبيهم، ويتواصون جيلًا بعد جيل بمخالفة أمره، ورفع راية العصيان في وجهه.(٣)

القصة الخامسة: قصة داود وسليمان عليهما السلام

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ

---

(١) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٥٤).

(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٤٤).

(٣) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٥٥).

فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

واذكر يا محمد داود وسليمان، اذكر خبرهما وهما يحكمان في شأن الحرث،إذ رعته غنم القوم ليلًا، وكان الله – سبحانه – لحكم داود وسليمان ومن تابعهما شاهدًا وحاضرًا،إذ لا يغيب عنه شيء، ولا يكون إلا ما يريد، ذكر المفسرون، أَنَّ رجلين دخلا على داود وعنده ابنه سليمان.أحدهما صاحب الحرث، والآخر صاحب الغنم.

فقال صاحب الحرث:- إن هذا انفلتت غنمه ليلًا فوقعت في حرثي، فلم تبق منه شيئًا، فقضى داود بأن يأخذ صاحب الحرث الغنم، فإنها تساوي قيمة الحرث التي أفسدته، فلما سمع سليمان هذا الحكم رأى ما هو خيرٌ منه، وأرفق بالجميع فقال:- ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمنها وأصوافها، ويدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه،حتى إذا عاد الزرع إلى حاله التي أصابته الغنم في السنة المقبلة رد كل واحد منهما ما لديه إلى صاحبه.

فقال داود يا بني:- القضاء ما قضيت، وقضى بما قضى به سليمان وأقره، وهذا معنى قوله: (ففهمناها سليمان)، أي: فهمنا سليمان القضية وحكمها العادل عدلًا فيه تعويض وتعمير.[1] وبعد أن ذكرت الآيات النعم المشتركة بين كلٍّ من داود وسليمان عليهما السلام، وهي العلم والفهم، خص كل واحد منهما بنعم خاصة به.ثم بينت لنا الآيات نعم الله على داود عليه السلام وهي:

النعمة الأولى:- في قوله تعالى:- (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) أي: جعلنا الجبال والطير تسبح مع داود إذا سبح[2]، وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويبًا.[3]

---

(١) التفسير الواضح – محمد حجازي – (٢ / ٥٤٦).
(٢) صفوة التفاسير – محمد الصابوني – (٢ / ٢٧٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – (٤ / ١١٢).

وإنما قدم ذكر الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب وأدخل في الإعجاز لأنها جماد.[1]

النعمة الثانية:- في قوله تعالى: (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) أي: أن من فضل الله تعالى على داود، أن علمه صنعة الدروع، بعد أن ألان له الحديد، كما يقول سبحانه وتعالى:-﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ سبأ: ١٠ – ١١

وفي قوله تعالى:- ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾. إشارة إلى أن هذه الدروع، هي مما يدفع به الله بأس الناس، ويرد به عدوان بعضهم على بعض. وهي نعمة تستوجب من الناس الحمد والشكر لله رب العالمين.[2]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠ ﴾ أي: فاشكروا الله على ما يسره لكم من هذه الصنعة التي تمنع عنكم غوائل الحروب وتقيكم ضرها وعظيم أذاها.[3]

ثم بعد ذلك بينت لنا الآيات النعم التي خصها الله لسليمان عليه السلام وهي:

النعمة الأولى:- ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ۝٨١ ﴾ أي سخرنا له الريح تنقله من بلد إلى بلد، وتقطع به المسافات البعيدة، في فترة قصيرة (عاصفة) أي شديدة الهبوب، (تجري بأمره) أي: إن أرادها عاصفة كانت عاصفة، وإن أرادها لينة كانت لينة (إلى الأرض التي باركنا فيها) وهي الشام، وذلك لأنها تجري بسليمان وأصحابه، حيث يشاء ثم يعود إلى منزله بالشام (وكنا بكل شيء عالمين) فنجريه حسبما تقتضيه الحكمة.[4]

النعمة الثانية:- ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ۝٨٢ ﴾

---

(١) صفوة التفاسير – محمد الصابوني – (٢ / ٢٧٠).
(٢) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٢ / ٩٢٧).
(٣) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٥٨).
(٤) المقتطف من عيون التفاسير – مصطفى المنصوري – (٣ / ٤٠٤).

أي: وسخرنا له من الشياطين من يغوصون له في البحار ويستخرجون منها اللؤلؤ والمرجان ونحو ذلك.

(ويعملون عملًا دون ذلك) أي: ويعملون له غير ذلك كبناء المحاريب والتماثيل والقصور والجنان وغير ذلك.

(وكنا لهم حافظين) أي: وكنا حافظين لأعماله فلا يناله أحد منهم بسوء، فكل في قبضته وتحت قهره لا يجسر على الدنو منه أحد، وهو المتحكم فيهم إن شاء حبس وإن شاء أطلق.[1]

ولقد ابتلى الله داود وسليمان – عليهما السلام – بالسوء، وفتنهما في هذه النعمة، فتن داود في القضاء، وفتن سليمان بالخيل الصافنات. وقد صبر داود، وصبر سليمان للابتلاء بالنعمة – بعد الاستغفار من الفتنة – واجتازا الامتحان في النهاية بسلام؛ فكانا شاكرين لنعمة الله تعالى.[2]

القصة السادسة: قصة أيوب عليه السلام

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء، والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل، وهي في هذا الموضع تعرض دعاء أيوب واستجابة الله لدعائه، لأن السياق سياق رحمة الله بأنبيائه ورعايته لهم في الابتلاء، سواء كان الابتلاء بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح، أو بالنعمة في قصة داود وسليمان، أو بالضر كما في حال أيوب.[3]

قال تعالى على لسانه: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ أي: واذكر قصة نبي الله أيوب حين دعا ربّه بتضرع وخشوع. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ أي: نالني البلاء والكرب والشدة. قال المفسرون: كان أيوب نبيًا، وكان له أولاد ومال كثير، فأذهب

---

(١) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٥٩)

(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٤٨).

(٣) المرجع نفسه – (٥ / ٤٨).

الله ماله فصبر، ثم أهلك الأولاد فصبر، ثم سلط البلاء والمرض على جسمه فصبر، فمر عليه ملأ من قومه فقالوا:- ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم، فعند ذلك تضرّع إلى الله فكشف عنه ضره.(وأنت أرحم الراحمين) أي: أكثرهم رحمة فارحمني، ولم يصرّح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه، فكان فيه من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطلب.

وقد جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وإنه أرحم الراحمين.(١) (فاستجبنا له) أي: أجبنا دعاءه وتضرعه (فكشفنا ما به من ضر) أي: أزلنا ما أصابه من ضر وبلاء.(٢)

(وآتيناه أهله ومثلهم معهم) أي: وأعطيناه في الدنيا مثل أهله عددًا مع زيادة مثل آخر، فولد له من الأولاد ضعف ما كان.(٣) (رحمة من عندنا) أي: أن ذلك العطاء كان رحمة منا، أصبنا بها عبدًا من عبادنا المخلصين. (وذكرى للعابدين) معطوف على (رحمة) أي: وكان ذلك الذي فعلناه بعبدنا " أيوب " تذكرة وموعظة (للعابدين) أي: الذين يعبدون الله، ويحسنون عبادته، ويصطبرون عليها.(٤)

والإشارة " للعابدين " بمناسبة البلاء إشارة إلى مغزاها. فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء، وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان، والأمر جد لا لعب.

والعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء، القادرين عليها، المستعدين لتكاليفها، وليست كلمة تقولها الشفاة،

ولا دعوى يدعيها من يشاء، ولا بد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء.(٥)

---

(١) التفسير القيم ـ ابن القيم ـ جمعه:محمد الندوي ـ حققه: محمد الفقي ـ دار الرائد العربي ـبيروت ـلبنان ـ ط الأولى ـ١٤٠٨هـ ـ١٩٨٨م ـ (٣٦٤)

(٢) صفوة التفاسير ـ محمد الصابوني ـ (٢/ ٢٧٢)

(٣) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٦١).

(٤) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٣٤).

(٥) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٤٩).

القصة السابعة: إسماعيل وإدريس وذا الكفل

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ تشير الآيات مجرد إشارة سريعة إلى إسماعيل وإدريس وذا الكفل:-

لما ذكر تعالى صبر أيوب عليه السلام وانقطاعه إليه، اتبعه بذكر هؤلاء فإنهم كانوا أيضًا من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة، أما إسماعيل عليه السلام فلأنه صبر على الانقياد للذبح، وصبر على المقام ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء، وصبر في بناء البيت، فلا جرم أكرمه الله تعالى وأخرج من صلبه خاتم النبيين [1]، وأما إدريس عليه السلام فلأنَّ زمانه مجهول وكذلك مكانه وهنالك قول بأنه أوزوليس الذي عبده المصريون بعد موته، وصاغوا حوله الأساطير، يوصف المعلم الأول للبشر، الذي علمهم الزراعة والصناعة. ولكننا لا نملك على هذا دليلًا، فلنعلم أنه كان من الصابرين على نحو من أنحاء الصبر الذي يستحق التسجيل في كتاب الله الباقي.[2]

وأما (ذو الكفل) فلم يذكر إلا في هذا الموضع، وقد اجتمع مع النبيين الكريمين:- إسماعيل وإدريس، وشاركهما في صفة الصبر.[3] كما يقول سبحانه وتعالى:- ﴿ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي: كل من هؤلاء الأنبياء من أهل الإحسان والصبر، جاهدوا في الله وصبروا على ما نالهم من الأذى. ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ﴾ أي: أدخلناهم بصبرهم وصلاحهم الجنة دار الرحمة والنعيم.

(إنهم من الصالحين) أي: لأنهم من أهل الفضل والصلاح.[4]

القصة الثامنة: قصة يونس عليه السلام

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ

---

(١) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١ / ١٨٢).
(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٤٩ – ٥٠).
(٣) التفسير القرآني للقرآن الكريم – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٤٣).
(٤) صفوة التفاسير – محمد الصابوني – (٢ / ٢٧٣).

إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

واذكر يا محمد ذا النون، يعني صاحب النون، وإنما عني بذي النون يونس بن متى.[1]

وقصة يونس عليه السلام تأتي هنا في صورة إشارة سريعة مراعاة للتناسق في السياق.[2](إذ ذهب مغاضبًا) أي: مراغمًا لقومه غضبان عليهم، لعدم استجابتهم لدعوته، إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون، ولا يصح أن يقال: مغاضبًا ربه، إذ لا يناسب منصب النبوة.[3]

فيونس عليه السلام ذهب مغاضبًا من أجل عصيان ربه، وليس مغاضبًا ربه أو آبقا حقا، وإلا كان مرتكب الكبيرة التي لا تليق بالفرد العادي فما بال يونس النبي الكريم.؟[4]

وفي قوله: (مغاضبًا) إشارة إلى أنه استجلب المغاضبة، واستعجلها، وأنه وإن ظهر له من قومه ما يثير الغضب، ويدعو إلى القطيعة، إلا أنه كان جديرًا به أن يصبر، ويصابر، وألا يأخذ القوم بأول بادرة، فيتخلى عن مقامه فيهم، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى، مخاطبًا للنبي الكريم، صلوات الله وسلامه عليه:قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ القلم: ٤٨.

ففي هذا تعريض بيونس – عليه السلام – أ يظن أن لن نقدر على محاسبته على هذا الموقف، وعقابه عليه. ولم يكن من يونس عليه السلام هذا الظن بربه، وبقدرته، وإنما حاله التي كان عليها هي التي تعطي هذا الوصف له، فهو قد فَعَلِ فِعلَ من يظن أنه يفعل ما يفعل، ثم لا يجد محاسبًا على ما فعل.[5]

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن – الطبري – (١٧ / ١٠٠).
(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب (٥ /).
(٣) المقطف من عيون التفاسير – محمد بن علي الصابوني – (٣ / ٤٠٦).
(٤) التفسير الواضح – محمد حجازي – (٢ / ٥٥٠).
(٥) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٤٥).

فقد قاده غضبه الجامح، وضيقه الخانق، إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها، حتى إذا كانت اللجة ثقلت، وقال ربانها:- إنه لا بد من إلقاء أحد ركابها في البحر لينجو سائر من فيها من الغرق، فساهموا فجاء السهم على يونس، فألقوه أو ألقى هو بنفسه، فالتقمه الحوت، مضيقًا عليه أشد الضيق فلما كان في الظلمات.. ظلمة جوف الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل نادى (أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فاستجاب الله دعاءه، ونجاه من الغم الذي هو فيه، ولفظه الحوت على الساحل[1].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

أي: مثل ذلك الإنجاء البديع ننجي المؤمنين من الكروب والشدائد، إذا دعونا واستغاثوا بنا بالإخلاص.

القصة التاسعة: قصة زكريا عليه السلام

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى بين انقطاع زكريا عليه السلام إلى ربه تعالى لما مسه الضر بتفرده، وأحب من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه،ويكون قائمًا مقامه بعد موته، فدعا الله تعالى دعاء مخلص عارف بأنه قادر على ذلك، وإن انتهت الحال به وبزوجته من كبر وغيره إلى اليأس من ذلك بحكم العادة.[2]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

أي: واذكر خبر زكريا حين طلب أن يهبه الله ولدًا يكون من بعده نبيًا، فقال خفية عن قومه: رب لا تدعني وحيدًا، لا ولد ولا وارث يقوم بعدي، فإن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث.[3]

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٥١).

(٢) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١ / ١٨٨).

(٣) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٦٦).

فإني أعلم أنك لا تضيع دينك، وأنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترتضيه للتبليغ.[1]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴿٩٠﴾ ﴾ أي: فأجبنا سؤاله، ووهبنا له يحيى، وأصلحنا زوجه، بأن أزلنا عنها الموانع التي كانت تمنعها من الولادة، فولدت له بعد أن كانت عقيمًا.[2]

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أراد بذلك زكريا وولده وأهله، فبين أنه آتاهم ما طلبوه وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون في الخيرات، والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به؛ لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة.[3]

﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ أي: كانوا يدعوننا طمعًا في رحمتنا وخوفًا من عذابنا، وكانوا لا يُعظّمون ولا يهابون أحدًا غيرنا.[4]

القصة العاشرة:-

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

لما استدل على الساعة بما وهب لهؤلاء القوم من أهل الطاعة من التصرف في العناصر وغيرها إلى أن ذكر أنه خرق العادة في إيداع يحيى عليه السلام بين والدين لا يولد لمثلهما لأن أباه زكريا عليه السلام قد صار إلى حالة الكبر. وأمه كانت – مع وصولها إلى مثل تلك الحال – عاقرًا في حال شبابها، تلاه بإيداع ابن خالته، عيسى عليه السلام الذي هو علم للساعة على حال أغرب من حاله، فأخرجه من أنثى بلا ذكر، إشارة إلى قرب الوقت لضعف الأمر، كضعف الأنثى بالنسبة إلى الذكر.[5]

---

(١) فتح القدير – الشوكاني – (٣/ ٥٠٢).
(٢) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٦٦).
(٣) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١ / ١٨٨).
(٤) نظم الدرر – البقاعي – (١٠٨).
(٥) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١ / ١٨٩).

﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا ﴾:- إنها أحصنت فرجها إحصانًا كليًا من الحلال والحرام جميعًا [1] كقوله تعالى على لسانها: ﴿ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ ﴾ مريم: ٢٠ ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ أي: فنفخنا الروح في عيسى في بطنها وجعلناه يجري في جوفها [2]

﴿ وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي: بتلك العظمة (آية) جعلها نفس الآية لكثرة ما كان فيها من الأعاجيب، وما كان فيها من ذلك ليس مقصودًا لذاته، بل لتقرير أمر عيسى عليه السلام، لم يقل:- آيتين، أو لئلا يظن أنه نفس العدد مقصود فينقص المعنى.[3]

وهي آية غير مسبوقة ولا ملحوقة، آية فذة واحدة في تاريخ البشرية جميعًا، ذلك أن المثل الواحد من هذا النوع يكفي لتتأمله البشرية في أجيالها جميعًا، وتدرك يد القدرة المطلقة التي تخلق النواميس، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس.[4]

ودلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.[5]

المناسبات بين المقطع وما قبله :-

هنالك مناسبات واضحة بين هذا المقطع وما قبله من المقاطع ومن أبرز وجوه المناسبة:-

١- إنه سبحانه لما تكلم في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع في قصص الأنبياء، تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فيما يناله من قومه، وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها.[6]

---

(١) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٦٧).
(٢) نظم الدرر – البقاعي – (١٠٨).
(٣) نظم الدرر – البقاعي – (١٠٨).
(٤) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٥٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – (٤ / ١٢١).
(٦) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١ / ١٥٤).

وليتأسى بهم في الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله تعالى، وتوطين النفس على مجابهة المشركين أعداء الله.[1]

٢- إن قصص الأنبياء تضيء ما سبقها من السورة، بل هي تأتي كالأمثلة لما ذكر في السورة من قبل من قواعد وحجج تدحض أقوال الكافرين بالوحي، والمعرضين عنه.[2]

٣- سبق في سياق السورة أن المشركين كانوا يستهزئون بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه بشر، وأنهم كانوا يكذبون بالوحي، ويقولون:- إنه سحر أو شعر أو افتراء.

فهاهو ذا يكشف لهم أن إرسال الرسل من البشر هي السنة المطردة، وهذه نماذج لها من قبل، وأن نزول الكتب على الرسل ليس بدعة مستغربة.[3]

٤- أشارت الآيات السابقة في أول السورة:- (وما أرسلنا قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين).

ففي هذه الآيات يذكر لنا الله سبحانه وتعالى بعض هؤلاء الرجال الذي اصطفاهم واختارهم من خلقه لحمل رسالته السماوية، تؤكد بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم وتؤكد عناية الله عز وجل بهم ورعايته لهم.

٥- إن الآيات السابقة قد ذكّرت المشركين وما جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم – من هدى ورحمة، فعموا وصموا، وأعرضوا...

فجاء عرض أمة النبيين في السياق للكشف عن أمرين:-

أولهما:- إن النبي ليس بدعًا فيما جاء به قومه من هدي السماء، بل إن أنبياء كثيرين قد جاؤوا إلى أقوامهم بآيات الله وكلماته.

وثانيهما:- إن اليهود، على رغم ما جاءهم من آيات الله الحسية إلى جانب آيات

---

(١) صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني – (٢ / ٢٦٥).
(٢) الأساس في التفسير – سعيد حوى – (٧ / ٣٤٧٩).
(٣) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٣٦).

الكتاب، لم يستقيموا على دعوة الحق، بل كان لهم مكر بآيات الله، وكفر بها... وفي هذا تعريض باليهود، وبأنهم على ضلال، وأنهم مدعوون إلى أن يصححوا عقيدتهم على ضوء هذا الكتاب الذي بين يدي الناس، والذي سيلقاهم به النبي.[1]

٦- في عرض أمة النبيين في السورة يوضح لنا السياق:-

أ- أن من أنبياء الله من نجاهم الله من مكر أقوامهم وأهلك المسرفين، من هؤلاء الرسل: إبراهيم ولوط عليهما السلام.

(ونجيناه ولوطًا) كما قال عن لوط عليه السلام:- (ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث)

ونوح عليه السلام:- (فنجيناه وأهله)، وتدل قصصهم على أن العبرة بالخواتيم، فهذا إبراهيم ينجيه الله في أحلك لحظة، وهذا لوط ينجيه الله في ساعة كربة، وهذا نوح ينجيه الله وينصره بعد الزمن الطويل، وفي ذلك إشارة إلى أن استعجال المعرضين عن الوحي يدلل على جهلهم بسنة الله.

ب- إن من الأنبياء من ابتلاهم الله بالنعمة أوبالضر، فالبنعمة داود وسليمان عليهما السلام (وكلًا أتينا حكمًا وعلمًا)، وبالضر أيوب عليه السلام: (أني مسني الضر)

ج- إن من الأنبياء الذين صبروا على الابتلاء، ولم تذكر الآيات نوع البلاء الذي أصابهم، وهم إسماعيل وإدريس وذا الكفل.

د- النبي الذي لم يصبر على تكاليف الرسالة، ألقى عبء الدعوة، وذهب مغاضبًا، فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين. (ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم).

ه- ذكر قصة مريم وابنها عليهما السلام إشارة إلى عبودية المسيح عليه السلام وكونه، مخلوقًا وآية.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٠٩).

فيتضح لنا أَنَّ صفة الصبر والصلاح صفتان مشتركتان عند كل رسول، وفي هذا درس للنذير ودرس للاقتداء به.[1]

فالمقطع السابق عرض لنا قصص أنبياء ابتلوا بالخير، وقصص أنبياء ابتلوا بالشر، وكيف تم للرسل في المقامين الشكر والصبر، ليكونوا قدوة الخلق في كل حال.[2]

وله صلة بقوله تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

٧- إن أهم رابط يربط بين ذكر قصص الأنبياء وسياق السورة:-

بدأت السورة بمقدمة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ثم جاء بعد هذا مباشرة قوله تعالى:- ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

وهذا النص يأتي هنا بمثابة رد على كلامهم، فلما قال الرسول هذا الكلام، ثارت ثائرتهم فقالوا:- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

فجاء الجواب على افترائهم الأخير وكلامهم الأول مع الأخير:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ﴾

وفي ذكر قصص هؤلاء الأنبياء يأتي تقرير ذلك، ومن ثم نلاحظ تكرار كلمة:(فاستجبنا)

---

(١) الأساس في التفسير – سعيد حوى – (٧/ ٣٤٨٦).

(٢) نفس المرجع – (٧/ ٣٤٨١).

(إذ نادى) (فاستجبنا) (ونوحًا إذ نادى من قبل فاستجبنا له) وأيوب إذا نادى.. ربه.. فاستجبنا له (وذا النون... فنادى في الظلمات.... فاستجبنا له....) (وزكريا إذ نادى ربه.... فاستجبنا له....).

فالله عز وجل يسمع النداء في كل حال ويستجيب، وفي ذكر قصة إبراهيم ولوط، وفي ذكر قصة سليمان وداود وقصة مريم، وقصة إسماعيل وإدريس وذا الكفل عليهم السلام ما نرى به من مظاهر علم الله:- (وكنا به عالمين) في قصة إبراهيم (وكنا لحكمهم شاهدين) في قصة داود وسليمان، فذكر قصص الأنبياء في السياق يخدم مقدمات السورة كلها.[1]

٨- في هذا المقطع تتجلى المعاني التي سيقت في سياق السورة، تتجلى في صورة وقائع في حياة الرسل والدعوات، بعد ما تجلت في صورة قواعد عامة ونواميس.[2]

المبحث الثاني: الوحدة الكبرى عند الرسل جميعًا وجريان السنن على وتيرة واحدة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ۖ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

بعد ما ذكر أخبار الماضيين من الرسل وأقوامهم، وظهر أنهم جميعًا يسارعون في الخيرات، ويدعوننا رغبًا ورهبًا، وكانوا لله خاشعين، وعليه متوكلين، وله مسلمين، دينهم التوحيد الخالص، والإيمان بالله ورسله وكتبه[3]، بعد ذكر هؤلاء المكرمين من عباده، من ذكور وإناث ومن بعيد عهده وقريبه – عقب على ذلك بقوله تعالى:-

---

(١) الأساس في التفسير – سعيد حوى – (٧ / ٣٤٨٧ – ٣٤٨٨).

(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٨).

(٣) التفسير الواضح ـ محمد حجازي ـ (٢/ ٥٥٥)

(إن هذه أمتكم) إشارة إلى أن هذا هو المجتمع الإنساني، وتلك هي الأمة الإنسانية التي يبعث فيها رسله، ويصطفي منها من يشاء من عباده.

فهذه هي الأمة التي ينتسب إليها كل إنسان وفيها هذه الوجوه المشرقة التي عرضتها الآيات السابقة، التي ينبغي أن يقيم الناس وجوههم عليهم، وأن يقتدوا بهم، فهم جميعًا من طينة واحدة، وإنما يكون التفاوت بينهم بالجهد الذي يبذله الإنسان منهم، لإعلاء إنسانيته.[1]

إن لب الدين عند الله واحد، وإن جميع الأنبياء قد اتفقوا عليه، ولم يختلفوا فيه في عصر من الأعصار، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وأنه القاهر فوق عباده المالك لجميع السماوات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم.[2]فدين الله واحد في الأولين والآخرين، لا يختلف إلا في صوره ومظاهره، وأما روحه وحقيقته، فهو ماطولب به العالمون أجمعون على ألسنة جميع الأنبياء والمرسلين، فلا يتغير، وهو إيمان بالله الواحد الأحد، وإخلاص له في العبادة.[3]

فدينكم وملتكم التي يجب أن تكونوا عليها أيها الناس ملة واحدة غير مختلفة، وهي ملة الإسلام، والأنبياء كلهم جاؤوا برسالة التوحيد.[4]

إن هذه الملة المحمدية هي ملتكم التي يجب أن تتمسكوا بها، ولا تنحرفوا عنها، هي ملة واحدة، كما عرفتم من الأمم مع أنبيائهم، ملة واحدة غير مختلفة في الأصول والعقائد.[5]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ

---

(١) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٥٠ – ٩٥١).

(٢) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٦٨)

(٣) دراسات تاريخية من القرآن ـ محمد بيومي مهران ـ دار المعرفة ـ الإسكندرية ـ مصر ـ ١٩٩٥م ـ (٢٦)

(٤) صفوة التفاسير – محمد الصابوني – (٢ / ٢٧٤)

(٥) التفسير الواضح – محمد حجازي – (٢ / ٥٥٥).

(٥) ا رشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ـ محمد بن محمد العمادي أبو السعود ـ دار إحياء التراث العربي – بيروت ـ (٦/ ٨٤)

وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ آل عمران: ٦٤

وأنا ربكم لا إله لكم غيري، فاعبدوني خاصة لا غير.[1]

وحول الخطاب إلى الغيبة كأنه ينقل أخبارهم إلى قوم آخرين، على معنى:- ألا ترون ما ارتكب الناس من مخالفات في دين الله، لقد جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا، كما يوزع الجماعة الشيء، ويقتسمونه،فيكون لهذا قطعة ولذاك قطعة، وهذا تمثيل لاختلافهم وكونهم أحزابًا وفرقًا شتى، وما علموا أن الكل إلينا راجع، وكلهم واردون على حساب شديد يوم الفزع الأكبر، فاحذروا أيها الناس أن تكونوا مثلهم[2] أما قوله تعالى:- ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ۖ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

أي: فمن عمل من هؤلاء، الذين تفرقوا في دينهم، بما أمر الله به من العمل الصالح، وإطاعته في أمره ونهيه، وهو مقر بوحدانية الله، مصدق وعده ووعيده، متبرئ من الأنداد والآلهة، فلا كفران لسعيه، بل يشكر الله عمله هذا، يثيبه ثواب أهل طاعته[3]، ولا بطلان لثواب عمله، وهو كقوله تعالى:_ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ الإسراء: ١٩

فالكفران مثل في حرمان الثواب، والشكر مثل في إعطائه وقوله (فلا كفران) المراد نفي الجنس ليكون في نهاية المبالغة لأن نفي الماهية يستلزم نفي جميع أفرادها[4]

(وإنا له كاتبون) أي: لسعيه حافظون، ومثله قوله سبحانه وتعالى:-

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴿١٩٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٥[5]

---

(١) التفسير الواضح – محمد حجازي ـ (٢ / ٥٥٥).
(٢) نظم الدرر في تناسب الآي والسور – البقاعي – (١١١)
(٣) تفسير القاسمي – محمد جمال الدين القاسمي – (١٠ / ٤٣٠٨).
(٤) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١ / ١٩١).
(٥) فتح القدير – الشوكاني – (٣ / ٥٠٣).

والجزاء على العمل يتم في الآخرة، حتى ولو قدم منه قسط في الدنيا، فالقرى التي هلكت بعذاب الاستئصال ستعود كذلك حتمًا لتنال جزاءها الأخير، وعدم عودتها ممتنعة، فهي راجعة بكل تأكيد.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ إنما يفرد السياق هذه القرى بالذكر بعد أن قال: (كل إلينا راجعون) لأنه قد يخطر للذهن أن هلاكها في الدنيا كان نهاية أمرها، ونهاية حسابها وجزائها، فهو يؤكد رجعتها إلى الله، وينفي عدم الرجعة نفيًا قاطعًا في صورة التحريم لوقوعه...[1]

ثم يعرض مشهدًا من مشاهد يوم القيامة يبدؤه بالعلامة التي تدل على قرب الموعد وهو فتح يأجوج ومأجوج:- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

أي: أن من علامات قيام الساعة: فتح سد يأجوج ومأجوج، ويطلعون من كل ثنية ومرتفع ويعمون الأرض.[2]

ويأجوج ومأجوج، هم من الجماعات المفسدة في الأرض، وقد ذكرهم الله تعالى في قصة ذي القرنين عند السد قال:- ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ الكهف: ٩٨

قوله تعالى:- (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج) إشارة إلى انهيار هذا السد، وفتح الطريق ليأجوج ومأجوج إلى الأمم المجاورة لهم.[3]

(وهم من كل حدب ينسلون) وانطلقوا من مرتفعات الأرض وانتشروا في جنباتها مسرعين،[4]

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٥٨).

(٢) البحر المحيط – لأبي حيان الأندلسي – (٧ / ٤٦٧).

(٣) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٥٤).

(٤) التفسير الميسر ـ عدد من الأساتذة تحت إشراف الدكتور: عبد الله عبد المحسن التركي ـ موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ـ (٦/ ١٢)

وفي المشهد المعروض هنا يبرز عنصر المفاجأة التي تبهت المفجوئين:-

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

فقد ربطت الآيات هنا خروج يأجوج ومأجوج بقرب الساعة، وعلى أنها علامة من علامات يوم القيامة.

واقترب الوعد الحق فإذا هي الأبصار شاخصة: أي: أبصار الذين كفروا من هول ما رأوا لا تطرف أبدًا.[1] أي: قرب يوم القيامة، وإذ ذاك تشخص أبصار الذي كفروا وترتفع أجفانهم، فلا تكاد تطرف من هول ما هم فيه حين يقومون من قبورهم ويعلمون أن هذا يوم الحساب الذي لم يعدوا له العدة، بل كانوا ينكرون مجيئه.[2]

ثم يميل السياق عن حكاية حالهم إلى إبرازهم يتكلمون:- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

وهو تفجع المفجوء الذي تنكشف له الحقيقة المروعة بغتة، فيذهل وليشخص بصره فلا يطرف، ويدعو بالويل والهلاك، ويعترف ويندم، ولكن بعد فوات الأوان.[3]

﴿ بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي: بعدم اعتقاده واضعين الشيء في غير موضعه حيث أعرضنا عن تأمل دلائله، والنظر في مخايلة، وتقبل كلام الرسل فيه، فأنكرنا ماهو أضوأ من الشمس.[4]

فلم نكن غافلين عنه، حيث نُبِّهنا عليه بالآيات والنذر، بل كنا ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد.[5]

---

(١) التفسير الواضح – محمد حجازي – (٢ / ٥٥٦)
(٢) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٧١).
(٣) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٥٩).
(٤) نظم الدرر – البقاعي – (١١٣).
(٥) المقتطف من عيون التفاسير – مصطفى المنصوري – (٣/ ٤١١).

المناسبات بين المقطع وما قبله :-

هنالك مناسبات واضحة بين المقطع وما قبله من المقاطع السابقة، وسوف نعرض أهم هذه الروابط والمناسبات بين المقاطع من خلال الآتي:

١- في نهاية الاستعراض في المقطع السابق شمل نماذج من الرسل، ونماذج من الابتلاء، ونماذج من رحمة الله – فبينت لنا الآيات الغرض الشامل من هذا الاستعراض: إن هذه الأمة – " أمة الأنبياء " – أمة واحدة، تدين بعقيدة واحدة، وتنهج نهجًا واحدًا، وهو الاتجاه إلى الله دون سواه.

أمة واحدة، ورب واحد، لا إله غيره ولا معبود إلا إياه.

أمة واحدة وفق سنة واحدة، تشهد بالإرادة الواحدة في الأرض والسماء، وهنا يلتقي هذا الاستعراض بالمحور الذي تدور عليه السورة كلها؛ وتشترك في تقرير عقيدة التوحيد، تشهد بها مع سنن الكون وناموس الوجود.[١]

٢- إن مناسبة القصص القرآنية في السورة بما قبلها وبما يليها يتضح لنا من خلال الغرض الآتي:بيان أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح عليه السلام إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم؛ وأن المؤمنين أمة واحدة، ضاربة في جذور التاريخ، يضمهم ركب واحد مبارك.. وأن الله الواحد الأحد هو رب الجميع.[٢]

وكثيرًا ما وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعة في صورة واحدة، معروضة بطريقة خاصة، لتؤيد هذه الحقيقة[٣]حتى كأننا أمام نبي واحد وأمة واحدة عبر عصور التاريخ، وهذا هو فحوى السنة.[٤]

وسورة الأنبياء وضحت لنا ذلك من خلال القصص القرآنية الموجودة في أثنائها.

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٥٤).
(٢) علوم القرآن وإعجازه – عدنان زرزور – (٦٥٩).
(٣) النظم الفني للقرآن – سيد قطب – دار المعارف – الإسكندرية – مصر – (١١٢).
(٤) علوم القرآن وإعجازه ـ عدنان زرزور ـ (٦٦٠).

من بداية أول قصة في قوله تعالى: (ولقد آتينا موسى وهارون) إلى قوله تعالى:(والتي أحصنت فرجها ونفخنا فيها من روحنا)

ثم ختم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ وهذا هو الغرض الأصيل من هذا الاستعراض الطويل، وغيره من الأغراض الأخرى يأتي عرضًا وفي أثنائه.

وهذا كله له مناسبة بموضوع السورة، وهي تبين لنا أن رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام حق وجد.

٣- ولما دل ما مضى من قصص هؤلاء الأنبياء وغيرهم على أن لله القدرة الباهرة، والقوة البالغة الشاملة للبعث وغيره، وكان ذلك دالًا على التوحيد الذي هو أصل الدين، وأنهم كلهم متفقون عليه بالتصريح من بعض من ذكر هنا ومن الباقين فيما سبق، كان إثباته بهذه القصص وما تقدمها من السورة.(١)

٤- إن الصلة واضحة بين هذه المجموعة وما قبلها، ومن مظاهر الوضوح أن يأتي قوله تعالى:- (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) بعد أن قص الله علينا قصص الأنبياء عليهم السلام.(٢)

٥- بهذه الآيات الثلاث (إن هذه أمتكم أمة واحدة) (وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون) (فمن يعمل الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون).

انتهى الكلام عن الأنبياء عليهم السلام، فهم أمة واحدة ووأمة محمد صلى الله عليه وسلم واحدة منهم، والله هو الرب، وانقسام الناس أثر عن الإيمان والكفر، ونجاة المؤمنين الصالحين بسبب سلوكهم طريق النجاة، ولقد جاء الكلام عن الأنبياء بعد المجموعة التي بدأت بقوله تعالى:-

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ومن ثم فإن ذكر مجموعة من الأنبياء في هذا السياق فيه إقامة حجة على من تصور أن محمداً صلى الله

---

(١) نظم الدرر – البقاعي – (١١٠).

(٢) الأساس في التفسير – سعيد حوى – (٧/ ٣٤٩٥٨).

عليه وسلم ليس رسولًا لأنه بشر، ومجيء الآيات الثلاث بعد ذكر مجموعة من الأنبياء يشير إلى أن الدخول في أمّة الأنبياء إنما هو الدخول في دين محمد صلى الله عليه وسلم.[1]

٦- من مظاهر ارتباط هذه المجموعة بسياق السورة قوله تعالى:- (اقترب الوعد الحق) فهي مرتبطة بأول آية في السورة:- (اقترب للناس حسابهم).

٧- ومن مظاهر ارتباط هذا المقطع بما قبله، إذا مستهم نفحة العذاب في الدنيا: ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ وإذا جاء يوم القيامة قالوا: ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فالصلة واضحة بين ما ورد قبل قصص الأنبياء، وبين ما نحن فيه الآن، وبين بداية السورة، وبين ما نحن فيه الآن:- ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ في أول السورة، وهاهنا يذكر الله عز وجل موضوع اقتراب يوم القيامة، وقول الكافرين إذا جاء:- ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ فهم يعترفون بتقصيرهم حيث لا ينفع التقصير.[2]

٨- إن من أهم مظاهر ارتباط المقطع بما قبله: إنه لما ورد قبل ذكر قصص الأنبياء، وبين آيات هذه المجموعة، قوله تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

٩- والآن يأتي قوله تعالى:- ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ على الناس (وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَجَعَلْنَاهَا أي نشز من الأرض، أي ارتفاع (يَنْسِلُونَ) يسرعون في المشي إلى الفساد ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ مِنْ هَذَا ﴾ أي: يوم القيامة، فإنه إذ تفتح يأجوج ومأجوج يكون قد شارف ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: مرتفعة الأجفان، لا تكاد تطرف من هول ما هم فيه، وذلك إذا قامت القيامة

---

(١) الأساس في التفسير – سعيد حوى – (٧/ ٣٤٩٥)..

(٢) نفس المرجع ـ (٧/ ٣٤٩٦).

﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ أي: يقولون يا ويلنا ﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ﴾ في الدنيا ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ بوضعنا العبادة في غير محلها.[1]

الفوائد والعظات والعبر:-

١- إن أمة الرسل واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة، أساسها التوحيد الذي تشهد به نواميس الوجود؛ والذي دعت إليه الرسل منذ أولى الرسالات إلى آخرها، دون تبديل ولا تغير في هذا الأصل الكبير.[2]

٢- مع وحدة أمة الرسل، ووحدة القاعدة التي تقوم عليها الرسالات، فقد تقطع أتباعها أمرهم بينهم، كأنما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها، وثار بينهم الجدل، وكثر بينهم الخلاف، وهاجت بينهم العداوة والبغضاء، وقع ذلك بين أتباع الرسول الواحد حتى ليقتل بعضهم بعضًا باسم العقيدة، والعقيدة يواحدة، وأمة الرسل كلها واحدة.[3]

٣- إنهم قد غفلوا عما أمر به دينهم من وجوب الاعتصام بوحدة الأمة ونبذ الفرقة، ففعلوا ضد هذا وهذا، وذاق بعضهم بأس بعض، وكان في هذا وبال للجميع، وتمكن عدوهم من أن يهيض جناحهم، ويبطش بهم، يستعبدهم في عقر دارهم ويسومهم الخسف والصغار، بعد أن كانوا سادة أحرارًا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.[4]

٤- العمل الصالح هو ثمرة الإيمان التي تثبت وجوده وحيويته في الضمير، والإسلام بالذات عقيدة متحركة متى تم وجودها في الضمير تحولت إلى عمل صالح هو الصورة الظاهرة للإيمان المضمر، والثمرة اليانعة للجذور الممتدة في الأعماق.

---

(١) الأساس في التفسير – سعيد حوى – (٧/ ٣٤٩٦).
(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٥٦).
(٣) المرجع نفسه ـ (٥/ ٥٦).
(٤) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٧٠).

والعمل الطيب الذي لا يصدر عن إيمان إنما هو مصادفة عابرة، لأنه غير مرتبط بمنهج مرسوم، ولا موصول بناموس مطرد.[1]

٥- إن الناس لا يرجعون إلى الحياة حتى تزلزل الأرض زلزالها، ويختل نظام هذا العالم، فتموج الأمم بعضها في بعض بتفريق أجزائها، لا فرق بين يأجوج ومأجوج وغيرهما. فذكرهما رمز لاختلال الأرض وخرابها، فكأنه قيل إنهم لا يرجعون إلى الحياة إلا إذا اختل نظام العالم ورجت الأرض رجًا، وماجت الأمم بعضها في بعض، وخرج الكفار من قبورهم شاخصة أبصارهم من الهول الذي هم فيه.[2]

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٥٧).

(٢) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٧٢).

الفصل الثالث

النهاية والمصير

بعد عرض سنن الله الكونية، الشاهدة بوحدة الخالق؛ وسنن الله في إرسال الرسل بالدعوات الشاهدة، بوحدة الأمة ووحدة العقيدة.

يعرض السياق النهاية والمصير، ويتبين فيه مصير المشركين بالله ومصير الشركاء؛ ويتفرد الله ذو الجلال بالتصريف فيه والتدبير.

ثم يقرر سنة الله في وراثة الأرض، ورحمة الله للعالمين المتمثلة في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

وعندئذ يؤمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن ينفض يده منهم، وأن يدعهم لمصيرهم، فيترك الحكم لله فيهم؛ ويستعين به على شركهم وتكذيبهم واستهزائهم، وانصرافهم إلى اللعب واللهو، ويوم الحساب قريب.[1]

المبحث الأول: نهاية الكافرين ونهاية المؤمنين

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٥٦).

﴿ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾
الأنبياء: ٩٨ - ١٠٦

(إنكم) يا أهل مكة[١]، (وما تعبدون) أيها المشركون من الأصنام والشياطين؛ ولما كانوا يتعبدون له سبحانه طوعًا وكرهًا مع الإشراك، قيد بقوله دالًا على أن رتبة ما عبدوه من أدنى المراتب الكائنة تحت رتبته:- (من دون الله) أي: الملك الأعلى الذي لا كفء له؛ ولما كانوا يرمى بهم في جهنم رمي الحجارة الصغار التي تسمى الحصباء إلى المحصوب إسراعًا وإكراهًا، فيكونون وقودها من غير إخراج.[٢]

وهذا صوت الإغاثة الذي يغاث به الكافرون، وهم يولولون، ويندبون. وإنه لصوت مفزع، يدخل عليهم بما يزيدهم كربًا وجزعًا:- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الأنبياء: ٩٨

أي: إنكم الحصى التي تحصب به جهنم، أي: إنهم يلقون فيها هم وآلهتهم كما يلقى بالحصى في حفرة، بلا وزن ولا حساب.[٣]

والحكمة في أن الآلهة تقرن بهم وتدخل معهم في النار:

١- إنهم كلما رأوهم ازدادوا غمًّا وحسرة، لأنهم ما وقعوا في العذاب إلا بسببهم وقد قالوا:- النظر في وجه العدو باب من أبواب العذاب.

٢- إنهم قد كانوا في الدنيا يظنون أنهم يشفعون لهم في الآخرة ويدفعون عنهم العذاب، فإذا استبان لهم أن الأمر على عكس ما كانوا يظنون لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

٣- إن إلقاءهم في النار استهزاء بهم وبعبادتهم.[٤]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾

---

(١) تفسير الجلالين – للإمامين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي – دار القلم – بيروت – لبنان – (٤٣٠).
(٢) نظم الدرر – البقاعي – (١١٣).
(٣) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٥٦).
(٤) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٧٣).

يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها.[1]

فبين لهم بالدليل خطأ ما يعتقدون، وقصارى ذلك – إن الأصنام إذا كانت لا تنفع نفسها، ولا تدفع الضر عنها، فهي أبعد من أن تدفع الضر عن غيرها، ومن جراء ذلك فهي جديرة بالتحقير والإهانة، لا بالتعظيم والعبادة.[2]

ولو كان هؤلاء الذين عبدوهم آلهة تنفع وتضر كما هو مقتضى العبادة لما وردوا النار، ودخلها العابدون لها والمعبودون![3] ثم إنه سبحانه وصف ذلك العذاب بأمور ثلاثة:-

أحدها: الخلود قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾

يعني العابدين والمعبودين[4] وهو تفسير لقوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أن كلًا منهم في جهنم خالدون معذبون عذابًا شديدًا.[5]

ثانيها:- قوله تعالى:- (لهم زفير) لهم زفير من شدة ما ينالهم، والضمير في قوله: (وهم فيها لا يسمعون) يرجع على المعبودين، أي: لا يسمعون صراخهم وشواهم، ومعناه: أنهم لا يغيثونهم، وِشْبهُهُ سمع الله لمن حمده، أي: أجاب الله دعاءه.

وثالثها:- قوله: (وهم فيها لا يسمعون) وفيه وجهان:-

أحدهما:- أنه محمول على الأصنام خاصة.

والثاني:- أنها محمولة على الكفار، ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه:-

أحدها:- أن الكفار يحشرون صمًا، كما يحشرون عميًا زيادة في عذابهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – (٤ / ١٢٦).
(٢) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٧٤).
(٣) التفسير الواضح – محمد حجازي – (٢ / ٥٥٩).
(٤) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١ / ١٩٥).
(٥) التفسير الواضح – محمد حجازي – (٢ / ٥٥٩).

وثانيهما:- أنهم لا يسمعون ما ينفعهم، لأنهم يسمعون أصوات المعذبين،أو كلام من يتولى تعذيبهم من الملائكة.

وثالثها:- قال ابن مسعود:- إنَّ الكفار يجعلون في توابيت من النار، والتوابيت في توابيت أُخر، فلذلك لا يسمعون شيئًا.

والأول:- ضعيف لأن أهل النار يسمعون كلام أهل الجنة، فلذلك يستغيثون بهم على ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف [1]:-

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ الأعراف: ٤٤

وبعد أن ذكر حال أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف عليه بيان أحوال السعداء من المؤمنين بالله ورسوله وقد أسلفوا صالح الأعمال فذكر:

أنَّ الذين سبق لهم التوفيق للطاعة، وأخلصوا لله العمل – لا يدخلون النار ولا يقربونها البتة.

وهنا الآيات تعرض ما يلقى المؤمنون يوم القيامة من ربهم، من كرامة وتكريم، وقد وصفوا بأنهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

فهؤلاء الذين سبقت لهم من الله الحسنى، هم مبتعدون عن تلك النار التي يتقلب على جمرها، ولهيبها، الكافرون والضالون، فلا يخلص إلى المؤمنين شيء من حرّها، ولا يصل إلى أسماعهم حس من زفيرها وشهيقها.[2] ثم ذكر أوصافهم حينئذ فقال:

١- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ ﴾ الأنبياء: ١٠٢

أي: لا يسمعون صوت النار الذي يحس من حركتها، ولا يرون اضطرابها من شدة توهجها.

---

(١) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١ / ٩٥).

(٢) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٥٧).

٢- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ أي: أنهم في نعيم لا ينقطع.

٣- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ أي: لا يخيفهم هول النفخة الأخيرة في الصور حين قيامهم من قبورهم للحساب.

٤- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

٥- أي: وتستقبلهم الملائكة بالبشرى من النجاة من العذاب قائلين لهم: هذا هو اليوم الذي كنتم توعدون في الدنيا بمجيئه، وتبشرون بما لكم فيه من الثواب، مكافأة إيمانكم بالله وطاعتكم له، وتزكية أنفسكم بصالح الأعمال، بإتباعكم أوامر ربكم، واجتنابكم نواهيه.(١)

ويختم المشهد بمنظر الكون الذي آل إليه، وهو يشارك في تصوير الهول الآخذ بزمام القلوب، وبزمام الكائنات كلها في ذلك اليوم العصيب:- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ ﴾.

فإذا السماء مطوية كما يطوي خازن الصحائف صحائفه، وقد قضي الأمر، وانتهى العرض، وطوي الكون الذي كان يألفه الإنسان.(٢)

وفي قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ أي: إننا نعيد الموتى وننشرهم كما خلقناهم ابتداء، فلا يصح للمشركين والكافرين، الذين يكذبون بيوم الدين، أن ينكروا هذا البعث. وأن يستبعدوه. فهو أهون من الخلق ابتداءً.(٣)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ يس: ٧٨ - ٧٩

ولقد اختلفوا في كيفية الإعادة فمنهم من قال:- إن الله تعالى يفرق أجزاء الأجسام ولا يعدمها ثم إنه يعيد تركيبها فذلك هو الإعادة.

---

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - (٥ / ٦٠).

(٢) التفسير الواضح - محمد حجازي - (٢ / ٥٥٩).

(٣) التفسير القرآني للقرآن - عبد الكريم الخطيب - (٥ / ٩٦٠).

ومنهم من قال:- إنه تعالى يعدمها بالكلية ثم إنه يوجدها بعينها مرة أخرى، وهذه الآية دالة على هذا الوجه لأنه سبحانه شبه الإعادة بالابتداء.

ولما كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء المتفرقة بل عن الوجود بعد العدم، وجب أن يكون الحال في الإعادة كذلك.[1]

وفي قوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

أي: إن إعادة الموتى إلى الحياة مرة أخرى، للحساب والجزاء، هو أمر قضى الله به، ولا رادَّ له.

وفي هذا يقول سبحانه:- ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ المؤمنون: ١٥ ــ ١٦

ويقول جل شأنه:

قَالَ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ التغابن: ٧

وهذا وعد من الله، ولن يخلف الله وعده وقد أكده سبحانه بقوله:-

(إنا كنا فاعلين) وهو وعد لا يحتاج إلى توكيد، عند المؤمنين، وإنما التأكيد مُتَصَوَّرٌ فيه إلى الكافرين، الذين يكذبون بيوم الدين.[2]

وقوله تعالى:- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ كتاب داود عليه السلام ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي: من بعد اللوح المحفوظ، أي:

وبالله كتبنا في كتاب داود بعد ما كتبنا وسطرنا في اللوح المحفوظ.[3]

وإما أن يكون وصفًا لكل كتاب بمعنى قطعه من الكتاب الأصيل الذي هو

---

(١) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١ / ١٩٨).

(٢) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٦٠).

(٣) المقتطف من عيون التفاسير – مصطفى المنصوري – (٣ / ٤١٢).

الذكر، وهو اللوح المحفوظ، الذي يمثل المنهج الكلي، والمرجع الكامل، لكل نواميس الله في الوجود.[1]

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى كتب وقضى في الكتب المنزلة على رسله بعد أن كان ذلك مسطورًا. في الكتاب الأم[2] ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ فما هي هذه الوراثة ؟ ومن هم عباد الله الصالحين ؟

لقد استخلف الله آدم في الأرض لعمارتها وإصلاحها، وتنميتها وتحويرها، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها، واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة، والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها في علم الله.

ولقد وضع الله للبشر منهجًا كاملًا متكاملًا للعمل على وفقه في هذه الأرض، منهجًا يقوم على الإيمان والعمل الصالح وفي الرسالة الأخيرة للبشر فصل هذا المنهج، وشرع له التشريع الذي تقيمه وتحرسه، ويكفل التناسق والتوازن بين خطواته.[3]

وصلاح الأمة يقوم على أربعة:-

١- أن يكون قادتها علماء مفكرين،وساستها حكماء عادلين، بعيدين عن الجور والظلم والمحاباة، يأخذون بيد المظلوم وينصفونه من الظالم، ويعملون لخير الأمة وسعادتها ويواصلون ليلهم بنهارهم في كل ما يرفع من شأنها، ويسمو به على الأمم.

٢- أن يكون لها جيش منظم يحمي حماها، ويدافع عنها إذا جد الجد، وادلهم الخطب، ولن يكون كذلك إلا إذا كان فيه المهندسون والمخترعون والقادة البارعون، ولديه من السلاح وعدد الحرب ما يكشف عنه العلم من وسائل الدفاع، من طائرات وغواصات وسفن حربية وآلات الهدم والتدمير، وجند حذقوا فنون الحرب، وبلوا أساليبها المختلفة.

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٦١).
(٢) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٦١).
(٣) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٦١).

٣- أن يقوم أبناء الحرف المختلفة، من تجار وصناع وزراع بأداء أعمالهم على الوجه المرضي، وكل طائفة منها تظاهر الطوائف الأخرى وتعاونها لخير الجميع، وتقوم بما يجب نحوها من المساعدة فيما يكفل نجاح الأعمال.

٤- أن تنظم هذه الطوائف أعمالها، بحيث تتوزع هذه المهن بين الأفراد بحسب حاجة الأمة إليها حتى لا تمد يدها إلى غيرها لمعونتها، ويكون في كل طائفة جماعة مبرزون، يفكرون فيما يرتقي بشؤون الطائفة، بحيث تنافس أمثالها في الأمم الأخرى أو تفوقها، بما أوتيت من حسن التدبير. والتصرف.[١]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

أي: إنَّ هذا الذي تحدث به القرآن الكريم من قصص، وما فيه من عبر – لبلاغًا، أي: لبيانًا كاشفًا شافيًا. أو إن في هذا الحكم الذي تضمنته الآية الكريمة:- (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر) إنَّ في هذا لبيانًا مبينًا وحجةً قاطعةً، يتلقى منها العابدون العبرة والعظة.

والمراد بالعابدين، المؤمنون، وقد ذكروا بالصفة الغالبة عليهم، وهي التعبد والأولوية له. فلا يكون المؤمن مؤمنًا إلا إذا عبد الله، وذكره ذكرًا متصلًا.[٢]

كما أن الله يثني على كتابه العزيز (القرآن) ويبين كفايته التامة عن كل شيء، ولا يُستغني عنه.[٣]

فالقرآن الكريم وما يكشفه من سنن في الكون والحياة، من مصائر الناس في الدنيا والآخرة، ومن قواعد العمل والجزاء.إن في هذا لبلاغًا وكفاية للمستعدين لاستقبال هدى الله.[٤]

---

(١) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٧٧).

(٢) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٦٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – عبد الرحمن بن ناصر السعدي – دار البيان الحديثة – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢م – (٥٠٨).

(٤) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٦٢).

المناسبات في المقطع والآيات السابقة :-

يأتي هذا المقطع مبينًا فيه نهاية الكافرين ونهاية المؤمنين ومناسبته بما قبله كما يلي:-

إذا رجعنا إلى السياق في أول السورة نجد أنه الآن يأتي التهديد للذين ذكر حالهم أول السورة، وهم المعرضون الغافلون والذين زادتهم السورة توضيحًا بأنهم مشركون فيقول:-قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

يعني الأصنام وإبليس وأعوانه، لأنهم بطاعتهم لهم وإتباعهم خطواتهم في حكم عبدته (حصب جهنم) أي: حطبها ووقودها (أنتم لها واردون) أي: فيها داخلون (لو كان هؤلاء آلهة) أي: كما زعمتم (ما وردوها) أي: ما دخلوا النار (وكل) من العابد والمعبود (فيها) أي: في النار (خالدون) لا يخرجون منها أبدًا (لهم)أي: الكفار (فيها زفير) أي أنين وبكاء وعويل (وهم فيها لا يسمعون) شيئا، لأنه صار واضحًا، وفي السّماع نوع أنس لهم فلم يعطوه.

هذا حال أهل الشقاوة، فكيف حال أهل السعادة ؟[1]

ولما كان أقل ما ينكأ من المكروه سماعه، قال: (لا يسمعون حسيسها) أي: صوتها الذي يحس أو حركة تلهبها، أي لا يقربونها حتى لا يسمعوا صوتها وصوت ما يجري فيها (وهم في ما اشتهت أنفسهم) من النعيم (خالدون) أي: مقيمون والشهرة طلب النفس واللذة (لا يحزنهم الفزع الأكبر) أي: النفحة الأخيرة (وتتلقاهم الملائكة) أي تستقبلهم الملائكة مهنئين على أبواب الجنة يقولون (هذا يومكم الذي كنتم به توعدون) أي: هذا ثوابكم الذي وعدكم الله به في الدنيا.[2]

ولما كانت هذه الأفعال على غاية من الأهوال، تتشوف بها النفس إلى معرفة اليوم الذي تكون فيه، قال تعالى شافيًا لعي هذا السؤال، زيادة في تهويل ذلك اليوم لمن له وعي[3]:-

---

(١) الأساس في التفسير – سعيد حوى – (٧/ ٣٤٩٦).

(٢) نفس المرجع ـ (٧/ ٣٤٩٧).

(٣) نظم الدرر – البقاعي – (١١٥).

(يوم نطوي السماء) أي: نجمعها (كطي السجل للكتب) أي:للمكتوبات.

(كما بدأنا أول خلق نعيده) أي: كما أوجدنا أول خلق خلقناه نعيد الخلق مرة ثانية (وعدًا علينا إنا كنا فاعلين) أي: وعدًا منا كائنًا لا محالة إنا كنا فاعلين ذلك أي محققين هذا الوعد فاستعدوا له، وقدموا صالح الأعمال للخلاص من هذه الأهوال، هذا ما أعده الله لأهل الإيمان في الآخرة ووعدهم إياه.[1]

(من بعد الذكر) أي: بعد التوراة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ أي: من آمن وعمل صالحًا (إن هذا) أي: القرآن، أو في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ (لبلاغًا) أي لكفاية ومنفعة (لقوم عابدين) أي: موحدين.[2]

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ إشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة؛ والبلاغ الكفاية وما تبلغ به البغية.[3]

إن في هذا الذي تقدم من أول السورة إلى هنا من توجيه أنظارنا لآيات الله الكونية، ومن قصص لنا فيها عبر ومواعظ وحكم.[4]

الفوائد والعظات والعبر:-

١- إن الأصنام وعابديها يكونون يوم القيامة حطب جهنم، وإنهم لو كانوا آلهة حقًا ما دخلوها.[5] وقد وصفت لنا الآيات كذلك ما يلقاه الكفار من الأهوال يوم القيامة.

٢- بيان النعيم الذي يلقاه المؤمنون عند ربهم في جنات الخلود، جزاء بما أحسنوا في الدنيا.

---

(١) الأساس في التفسير – سعيد حوى – (٧/ ٣٤٩٧).
(٢) نفس المرجع – (٧/ ٣٤٩٧).
(٣) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١/ ١٩٩).
(٤) التفسير الواضح – محمد حجازي – (٢/ ٥٦٠).
(٥) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧/ ٨٢).

٣- إن سنة الله في الكون أن يرث الأرض من يصلح لعمارتها وهم عباد الله الصالحون.

٤- إن اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ، ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح، وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان، وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح، وإلى عمارة الأرض، والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان.[1]

المبحث الثاني: موقف الرسول ﷺ من الكفار

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

عرفنا فيما سبق جزاء المشركين بالله، والمؤمنين به، وكانت العاقبة للمتقين وكان رسول الله ﷺ هو مفتاح الخير والرحمة[2] في الدين والدنيا، أما في الدين فلأنه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث الله تعالى محمدًا ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب، وشرح لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار وكان التوفيق قرينًا له، قال الله تعالى:- ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ

---

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - (٥ / ٦٢).

(٢) التفسير الواضح - محمد حجازي - (٢ / ٥٦١).

﴿لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾
فصلت: ٤٤

وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب، ونصروا ببركة دينه.(١)

وفي هذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

أي: وما أرسلناك بهذا وأمثاله من الشرائع والأحكام التي بها مناط السعادة في الدارين.. إلا لرحمة الناس وهدايتهم، في شؤون معاشهم ومعادهم.(٢)

فالله أرسل رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى، وما يهتدي إلا أولئك المتهيئون المستعدون، وإن كانت الرحمة تتحقق للمؤمنين وغير المؤمنين.(٣)

ولسنا مبالغين إذا قلنا إن الرسول ﷺ أول من شرع العدل وسنه، وأول من حكم بالقسط، قنن القوانين الحكيمة، وهو أول من بذر بذور الشورى الصحيحة في العالم، وهو أول من نصر الضعيف وأعان المظلوم، وانتصف للفقير من الغني، وساوى بين الخصمين، وساوى بين أتباعه وأتباع غيره، وأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.(٤)

إن المنهج الذي جاء مع محمد ﷺ منهج يسعد البشرية كلها، ويقودها إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة.(٥)

فهذا الكتاب الذي تلقاه النبي – صلوات الله وسلامه عليه – وحيًا من ربّه، وهذه الآيات المضيئة التي نطق بها، والتي وعتها الآذان، وسجلتها الصحف....

---

(١) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١ / ١٩٩).
(٢) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٧٨).
(٣) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٦٢).
(٤) التفسير الواضح – محمد حجازي – (٢ / ٥٦١).
(٥) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٦٢).

كل هذا رحمة قائمة في الناس جميعًا، وميراث من النور والهدى، يستهدي به الناس، ويصيبون منه ما يسع جهدهم، وما تطول أيديهم من خير.[1]

إن الرسالة المحمدية كانت وما تزال رحمة للبشرية، وإن محمدًا ﷺ إنما أرسل رحمة للعالمين، من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء، فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة، شاعرة أو غير شاعرة؛ وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة، لمن يريد أن يستظل بها، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية. في هجير الأرض المحرق بخاصة في هذه الزمن، إن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة ونداها، وهي قلقة حائرة، شاردة في متاهات المادية، وجحيم الحروب، وجفاف الأرواح والقلوب.[2] قوله تعالى:- ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

هذه هي الرحمة التي يؤذن بها النبي في الناس، ويقدمها هدية لهم.(إنما إلهكم إله واحد) هذا هو مفتاح الرحمة، وذلك هو مفتاح الهدى..

فمن أمسك بقلبه هذا المفتاح، ثم أداره، فقد وضع يده على كنوز الخير كلها.[3]

فهذا هو عنصر الرحمة الأصيل في تلك الرسالة، عنصر التوحيد المطلق الذي ينقذ البشرية من أوهام الجاهلية، ومن أثقال الوثنية، ومن ضغط الوهم والخرافة، والذي يقيم الحياة على قاعدتها الركينة، فيربطها بالوجود كله، وفق نواميس واضحة وسنن ثابتة، لا وفق أهواء ونزوات وشهوات والذي يكفل لكل إنسان أن يقف مرفوع الرأس، فلا تنحني الرؤوس إلا لله الواحد القهار.[4]

وفي قوله تعالى:- ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

هو تحريض للناس جميعًا على الاستجابة لهذه الدعوة الكريمة التي خفّ محملها،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٦٤).
(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٦٤).
(٣) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٦٤).
(٤) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٦٥).

وغلا ثمنها... إنها كلمة واحدة: (لا إله إلا الله) فما أخفها على اللسان، وما أطيب بردها على القلب، وما أقوم سبيلها إلى العقل ! فهل يلتوي بها فم ؟

وهل يضيق بها صدر ؟ وهل يزوال بها عقل ؟ إن ذلك لا يكون ! إلا عن آفات تغتال فطرة الإنسان، وتفسد كيانه.[1] فهنا استفهام يتضمن الأمر بإخلاص التوحيد والانقياد إلى الله تعالى.[2]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

أي فإن أعرضوا عن اتباع ما أوصي إليك فقل لهم:- هأنذا أعلمكم بأني حرب لكم، كما أنكم حرب لي، فأنا بريء منكم كما أنكم برآء مني، وأنتم سواء في هذا الإعلام، لا أخص أحدًا منكم دون أحد.[3]

أي: كشفت لكم ما عندي فأنا وأنتم على علم سواء – والإيذان يكون في الحرب لأنها فترة السلم، وإعلام الفريق الآخر أنها حرب الإسلام.

أما هنا – والسورة مكية، ولم يكن القتال قد فرض بعد – فالمقصود هو أن يعلن لهم بأنه قد نفض يده منهم، وتركهم عالمين بمصيرهم، وأنذرهم عاقبة أمرهم.

فلم يعد لهم بعد ذلك عذر، فليذوقوا وبال أمرهم وهم عالمون.[4]

أما متى يكون هذا ؟ فعلمه عند ربي، وما أدري أقريب هذا أم بعيد ؟

قوله تعالى:- ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

فأمركم كله مكشوف له، وحين يعذبكم بما يعلم من أمركم ظاهره وخافيه، وإذا أخر عنكم العذاب فحكمة تأخيره عند الله.[5]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٦٥).
(٢) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٧٩).
(٣) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٦٥).
(٤) نفس المرجع – (٥ / ٦٥).
(٥) في ظلال القرآن – سيد قطب ـ (٥/ ٦٥).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾

أي: وما أدري سبب تأخير جزائكم، ولعل ذلك زيادة في افتتانكم وامتحانكم، لينظر كيف تعملون، وإنه ليؤخركم إلى حين، كي تتمتعوا بلذات الدنيا، مع إعراضكم عن الإيمان، فيكون ذلك زيادة في عذابكم، لأن المعرض عن الإيمان مع توالي الآيات وتتابع البينات والنذر يكون عقابه أشد.(١)

وبهذا التجهيل يلمس قلوبهم لمسة قوية، ويدعهم يتوقعون كل احتمال، ويتوجسون خيفة من المفاجأة التي تأخذهم بغتة، وتوقظ قلوبهم من غفلة المتاع فلعل وراءه الفتنة والبلاء.

وتوقع العذاب على غير موعد مضروب كفيل بأن يترك النفس متوجسة، والأعصاب متوترة، ترتقب في كل لحظة أن يرفع الستار المسدول، عن الغيب المجهول.

وإن القلب البشري ليغفل عما ينتظره من غيب الله، وإن المتاع ليخدع، فينسى الإنسان أن وراء الستار ما وراءه مما لا يدريه ولا يكشف عنه إلا الله في موعده المغيب المجهول.

فهذا الإنذار يرد القلوب إلى اليقظة، ويعذر إليها بين يدي الله قبل فوات الأوان.(٢)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

هو حكاية لقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه، الذي يعقب به على هذا الموقف الذي بينه وبين هؤلاء المشركين، الذين يقفون منه هذا الموقف العنادي فيدعو ربه أن يحكم بينه وبين المشركين، والضالين " بالحق " فيعطي كلًا حقه.. ماله وما عليه.(٣)

---

(١) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧٠ / ٨٠).

(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٦٦).

(٣) التفسير القرآني للقرآن – عبد الكريم الخطيب – (٥ / ٩٦٧).

والله المستعان على ما تصفون، من الشرك والكفر والكذب والأباطيل، كقولكم إن الله اتخذ ولدًا، وقولكم في الرسول ﷺ[1]: قَالَ تَعَالَىٰ: على لسانهم ﴿ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾.

فالرسول ﷺ طلب من ربه أن يحكم بما يظهر الحق للجميع. وصفة الرحمة الكبيرة هنا ذات مدلول، فهو الذي أرسله رحمة للعالمين، فكذب به المكذبون واستهزأ به المستهزئون، وهو الكفيل بأن يرحم رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويعينه على ما يصفون[2].

المناسبات بين المقطع وما قبله :-

وحسب المنهج الذي اتبعناه نذكر المناسبات بين هذا المقطع وبين المقاطع السابقة ثم نحاول الربط بين هذا المقطع ومحور السورة، ولعلَّ مِنْ أبرزِ وجوهِ المناسبة بين هذا المقطع والمقاطع السابقة مايأتي:-

١- نلاحظ أن الآيات ردت على قول الكافرين كل واحدة منها بشكل يكمل الآخر.

هم قالوا:- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

فجاء الجواب:-

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

---

(١) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٨٠)

(٢) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٦٦).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾

وإذا قامت الحجة عليهم ببطلان ما تصوّروه وردّ ما زعموه فإن السياق الآن يأمر رسول الله ﷺ أن يقول:- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨ ﴾

أي: متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له، أي أسلموا، حصر الوحي كله بالتوحيد ووجوب الاستسلام للوحي (فإن تولوا) أي:فإن تركوا ما دعوتهم إليه، أي: فإن أعرضوا عن الإسلام (فقل آذنتكم على سواء) أي: أعلمتكم ما أمرت به مستوين في الإعلام به ولم أخصص بعضكم.(١)

٢ـ أنه تعالى لما أورد على الكفار الحجج في أن لا إله سواه من الوجوه التي تقدم ذكرها، وبين أنه أرسل رسوله رحمة للعالمين، أتبع ذلك بما يكون إعذارًا وإنذارًا في مجاهدتهم والإقدام عليهم.(٢) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩ ﴾

٣ـ جاء في أول السورة قوله تعالى:- ﴿ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤ ﴾

ونجد في الآية قبل الأخيرة بآية قوله تعالى:- ﴿ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠ ﴾

فالصلة بين ما ورد في أوائل السورة وبين آخرها صلة واضحة، فالإنذار الأخير المبدوء بقوله تعالى:-

(قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون * فإن تولوا...) إن هذا الإنذار هو الحصيلة النهائية التي تأتي نتيجة لكل ما سبق.(٣)

---

(١) الأساس في التفسير – سعيد حوى – (٧/ ٣٤٤٩ – ٣٥٠٠).

(٢) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١/ ٢٠١).

(٣) الأساس في التفسير – سعيد حوى – (٧/ ٣٥٠٢).

الفوائد والعظات والعبر:-

١- مظاهر كون رسولنا عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين كثيرة منها:-

أ- أن الله رفع عذاب الاستئصال الكلي للكافرين بعده مع أن الكافرين أمة الدعوة له.

ب- أن الله جعل في دينه سعادة الدنيا لمن أقامه، لما في هذا الدين من سعة ويسر وحق وعدل وخلاص من المشكلات والقلق والحيرة والاضطراب، وجعل فيه سعادة الآخرة.(١)

ج- أن كتابه هو المصباح الذي أنار للعالم طريقه، وكان فاتحة الخير والهدى والعلم والمعرفة، كان البلسم الذي هذب عقلية الفرس، والرومان، وكان فلسفة إسلامية عالية.(٢)

د- جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلي:- جاءت كتابًا مفتوحًا للعقول في مقبل الأجيال، شاملًا لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل، مستعدًا لتلبية الحاجات المتجددة التي يعلمها خالق البشر، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.(٣)

هـ- إنَّ الذين آمنوا بهذا النبي، والذي يؤمنون به في كل جيل من أجيال الناس، وفي كل أمة من الأمم، وفي كل جماعة من الجماعات، هم رحمة في هذه الدنيا على أهلها جميعًا، إذ كانوا - بما معهم من إيمان - عناصِرَ خيرٍ، وخمائرَ رحمةٍ ومصابيحَ هدىً.... وبهم تنكسر ضراوة الشر، وتخف وطأة الظلم، وترق كثافة الظلام.(٤)

٢- دلت تجارب البشرية حتى اللحظة على أن ذلك المنهج (الذي جاء به سيدنا محمدﷺ) كان وما يزال سابقًا لخطوات البشرية في عمومه، قابلًا لأن تنمو الحياة في ظلاله بكل ارتباطاتها نموًا مطردًا، وهو يقودها دائمًا ولا يتخلف عنها، ولا يقعد

---

(١) الأساس في التفسير - سعيد حوى - (٧/ ٣٥١١).
(٢) التفسير الواضح - محمد حجازي - (٢/ ٥٦١).
(٣) في ظلال القرآن - سيد قطب - (٥/ ٦٣).
(٤) التفسير القرآني للقرآن - عبد الكريم الخطيب - (٥/ ٩٦٤).

بها، ولا يشدها إلى الخلف، لأنه سابق دائمًا على خطواتها متسع دائمًا لكامل خطواتها.[1]

٣- الوحي إنما جاء بالتوحيد أن لا إله إلا إله واحد، وأن الواجب الاستسلام له والانقياد لأمره.[2]

٤- الأمر بالإخلاص وترك النفاق، لأنه تعالى إذا كان عالمًا بالضمائر وجب على العاقل أن يبالغ في الإخلاص.[3]

٥- إنَّ القلب البشري ليغفل عما ينتظره من غيب الله، وإنَّ المتاع ليخدع، فينسى الإنسان أن وراء الستار المسدل ما لا يدريه ولا يكشف عنه إلا الله في موعده المغيب المجهول.[4]

٦- ختمت السورة الكريمة بأمر النبي ﷺ بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده، فهو نعم الناصر ونعم المعين.[5]

وخطاب الرسول الكريم خطاب لأمته، فعلى المؤمنين تفويض جميع أمورهم إلى الله وحده لا شريك له، والاستعانة به في جميع الأقوال والأفعال، فهو نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٦٣).
(٢) تفسير المراغي – أحمد المراغي – (١٧ / ٨٢).
(٣) مفاتيح الغيب – الرازي – (١١ / ٢٠٢).
(٤) في ظلال القرآن – سيد قطب – (٥ / ٦٦).
(٥) صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني – (٢ / ٢٧٧).

الخاتمة

الحمد لله الذي أعان على إتمام هذه الدراسة وإنجازها، وقد خلص هذا الجهد إلى جملة من النتائج والتوصيات الآتية:ـ

أولاً: النتائج العامة:

١ـ التفسير على أساس الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية، منهج جديد في تفسير القرآن، وستظهر دراسات عديدة حوله، تكشف الكثير من معانيه وحقائقه.

٢ـ الوحدة الموضوعية في السور القرآنية، تكشف عن وجه من وجوه الإعجاز القرآني.

٣ـ أن فكرة تفسير سور القرآن الكريم على أساس وحدة الموضوع ظهرت في تفاسير علمائنا المتقدمين كالباقلاني، والزمخشري، والرازي، وكانت أكثر أصالة وعمقًا عند الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب، والبقاعي في نظم الدرر.

وتكاتفت بعد ذلك جهود كثيرة سعت إلى تعميق فكرة بناء السورة القرآنية على أساس من وحدة موضوعها، وحاولت أن تمثل لها تطبيقات على سور القرآن، بل إن بعض المفسرين المتأخرين جعلها منهجًا في تفسير القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك سيد قطب في ظلال القرآن، فقد كان أكثرهم عناية بالوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم من حيث شمولية التطبيق، وسعيد حوى في تفسيره الأساس في التفسير وغيرهم من المفسرين الأجلاء.

٤ـ البحث في وحدة الموضوع في سور القرآن الكريم، وتفسيرها على هذا الأساس هو الشق المكمل للتفسير الموضوعي في القرآن الكريم، وإذا تم توضيح مقصود هذا المعنى وانضباطه في مفهوم المفسرين، وتبعه توجه عملي منهم إلى تفسير

القرآن على النحو الموضوعي وفق منهج محدد، فسوف يمثل نقطة انطلاق في البحث يمكن أن تؤدي ـ بإذن الله ـ إلى تحقيق المقاصد والأهداف الشاملة من تنزيل هذا الكتاب، وتحقيق كونه كتاب هداية وإعجاز ومنهج نهضة وحياة للأمة.

٥ـ إن للسورة القرآنية موضوعًا محددًا تعالجه وتناقشه من خلال مختلف الموضوعات الجزئية، وتتميز سور القرآن بالانسجام الكامل بين آياتها التي تترابط فيما بينها كأنها وحدة واحدة، فالسورة القرآنية تشكل وحدة واحدة لا يمكن أن تتجزأ، ومن ذلك سورة الأنبياء موضوع بحثنا.

٦ـ لتفسير السورة الواحدة تفسيرًا موضوعيًا لابد من اتباع خطوات منهجية علمية ليؤتي العمل ثماره، وتكون الثمار المتوقعة مكافئة للجهد المبذول.

وتتمثل الخطوات في الآتي:ـ

أ ـ التقديم للسورة بتمهيد يعرِّف فيه بأمور تتعلق بالسورة من ذكر سبب النزول، والمرحلة التي نزلت فيها السورة، وما ورد فيها من أحاديث صحيحة تحدد أسماءها، أو بعض خصائصها أو فضائلها.

ب ـ محاولة التعرف على الهدف الأساسي في السورة والمحور الذي تدور حوله، ويكون ذلك من خلال دلالة الاسم، والموضوعات المطروحة في السورة.

ج ـ تقسيم السورة وبخاصة الطويلة ـ إلى مقاطع أو فقرات تتحدث آياتها عن عنصر من عناصر المقصد أو مجال من مجالات المحور، واستنباط الهدايات القرآنية منها، وإدراك المناسبات التي تربط بين آيات السورة وجملها:آية آية، ومجموعة مجموعة.

د ـ ربط هذه المقاطع، وما يستنبط من هدايات من كل منها بالمقصد والهدف الرئيس والأساسي للسورة بقصد إظهار هذا الهدف.

٧ـ لابد من تأصيل البحث في الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم بألوانه وأنواعه كافةً، والانطلاق في ذلك من منهجية علمية موضوعية، لها قواعد وضوابط وأسس، يلتزم بها الباحثون في موضوعات القرآن، لأنهم يتكلمون عن القرآن

المجيد، كلام الله العظيم، ولابد أن يكونوا حريصين على إحسان القول فيه، وحذرين من الخطأ فيه، أو البحث فيه وهم فاقدون لتلك المنهجية العلمية الموضوعية.

نتائج الدراسة الخاصة بالوحدة الموضوعية في سورة الأنبياء:

١ـ موضوع السورة الرئيس أن الرسالة حق وجد، فجاءت جميع آياتها مقررة هذه الحقيقة، فقد بدأت السورة بهز المشاعر ولفت الانتباه إلى الخطر القريب المحدق ((قيام الساعة)) والذي الناس عنه لاهية قلوبهم، غافلون عَمّا ينتظرهم، ثم ربطت الآيات بين الحق والجد في الدعوة والحق والجد في نظام الكون، وبين عقيدة التوحيد ونواميس الوجود ووحدة الخالق المدبر ووحدة الرسالة والعقيدة ووحدة مصدر الحياة ونهايتها ومصيرها.

٢ـ بتتبع الخطوط الرئيسة لموضوع السورة تقرر لنا:ـ

أ ـ أن موضوع السور المكية كلها هو العقيدة " لا إله إلا الله " بكل موجباتها وكل مقتضياتها، بل إن موضوع العقيدة هو الموضوع الرئيس في سور القرآن الكريم كاملة.

ب ـ أن أمة الرسل واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة، أساسها التوحيد الذي تشهد به نواميس الوجود، والذي دعت إليه الرسل منذ أولى الرسالات إلى آخرها دون تبديل في هذا الأصل الكبير.

ج ـ العمل الصالح هو ثمرة الإيمان التي تثبت وجوده وحيويته في الضمير، والإسلام بالذات عقيدة متحركة متى تم وجودها في الضمير تحولت إلى عمل صالح، وهذه هي الصورة الظاهرة للإيمان المضمر، والثمرة اليانعة للجذور الممتدة في الأعماق.

٣ـ من خلال تفسير سورة الأنبياء على أساس الوحدة الموضوعية، تبين للباحثة أن كل مقطع يعانق المقطع الآخر، ويلتقي معه في انسجام تام يجلّي إعجاز القرآن الكريم.

٤ـ النظام المحكم الذي ضم الآيات السورة، انتج عنه موضوع أشمل ومقصد جامع حيث تجلى بوضوح تام من خلال وحدة جامعة تربط آيات السورة، تجلت لتقرر موضوع العقيدة وتثبت أن الرسالة حق وجد كما أن الكون حق وجد، فلا مجال للهو في استقبال الرسالة الخالدة، وطلب الآيات الخارقة، وآيات الله في الكون كله توحي بأنه الخالق القادر الواحد، والرسالة من لدن ذلك الخالق الواحد.

ثانيًا: التوصيات:

١ـ توصي الباحثة بفتح قسم خاص بالدراسات القرآنية وعلوم القرآن ضمن أقسام الكلية، وذلك للحاجة الماسة لها في تخريج كوادر مؤهلة أكاديميًا في هذا التخصص.

٢ـ توصي الباحثة بتزويد المكتبات التابعة للجامعة بالمصادر والمراجع وما يستجد من أبحاث علمية تسهيلًا للباحثين والطلاب للاستزادة من المعرفة ومواكبة النمو المعرفي في العصر الحديث.

٣ـ توصي الباحثة بالمزيد من البحث والدراسة في الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، وبخاصة في تفسير السور على أساس وحدة الموضوع لما له من أهمية عظيمة في فهم معاني القرآن الكريم... إلخ.

٤ـ توصي الباحثة باعتماد التفسير الموضوعي ضمن مقررات قسم الدراسات الإسلامية، وذلك لما له من أهمية كبيرة عند المسلمين حيث أصبحت حاجتهم إليه ماسة، فهو تفسير هذا العصر وتفسير المستقبل أيضًا.

وبهذه الخاتمة الموجزة تنهي الباحثة مراحل البحث العلمي لهذه الدراسة المتواضعة، راجية من الله التوفيق والسداد، والقبول والثواب، ونعوذ بالله من فتنة القول والعمل، وسوء الفهم والتأويل.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفهارس العامة

١ـ فهرس الآيات القرآنية.
٢ـ فهرس الأحاديث والآثار.
٣ـ فهرس التراجم.
٤ـ فهرس المصادر والمراجع.
٥ـ فهرس المحتويات.

«١»

فهرس الآيات القرآنية

سورة الفاتحة

٤ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ..... ﴾ ٦٤

سورة البقرة

٢١ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ فِى ... ﴾ ٦٩

٢٣ ﴿ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم ..... ﴾ ٧٠

٣٤ ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ ٧٠

١٢٠ ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ ٦٩

٢٥٥ ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ..... ﴾ ١٦٠

سورة آل عمران

٦٤ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ ..... ﴾ ٢١٢

٩٦ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ..... ﴾ ٢٤، ٥٨

١٩١ ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ..... ﴾ ١٤٠

١٩٥ ﴿ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ ٢١٣

سورة النساء

٨٢ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ..... ﴾ ٢٢، ٥٨

٥٨ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ..... ﴾ ٤٨

سورة المائدة

٦٧ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ..... ﴾ ١٩٥

١١٦ ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ ١٥٧

سورة الأنعام

٩٣ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ..... ﴾ ٩٢

سورة الأعراف

٤٤ ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا .. ﴾ ٢٢٧

١١٧، ١١٨ ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ..... ﴾ ١٣٤

سورة الأنفال

٣٢ ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ..... ﴾ ١٧٠

سورة التوبة

٣٠، ٣١ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ ..... ﴾ ١٥١

٥٥ ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ..... ﴾ ١٦٣

سورة يونس

٣٨ ﴿ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ٧١

سورة هود

١٣ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ ٦٩

١ ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ..... ﴾ ٥١

سورة يوسف

٣٩ ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ. ﴾ ١٥٨

سورة الحجر

٣١ ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ..... ﴾ ٧٢

٩ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ..... ﴾ ٩٢

١٧ ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ..... ﴾ ١٦٢

سورة النحل

١٢٠ ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ... ﴾ ١٨٨

سورة الإسراء

١ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ... ﴾ ١٩٨

١٩ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ..... ﴾ ٢١٥

٦١ ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ..... ﴾ ٧٢

٨٨ ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ..... ﴾ ٧٣

سورة الكهف

٥٧ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ١٢٢

٩٨ ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا.. ﴾ ٢١٦

سورة مريم

٢٠ ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ..... ﴾ ٢٠٩

٩٧ ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ..... ﴾ ١١٣

٩٧ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ..... ﴾ ١١٣

سورة طه

٢ ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ .... ﴾ ١١٣

٧٧ـ٧٨ ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ..... ﴾ ١١٢

١٢٩ ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ..... ﴾ ١١٢

١٣٠-١٣١ ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ..... ﴾ ١١١، ١١٣

١٣٤ ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ ..... ﴾ ١١٤

١٣٥ ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ ... ﴾ ١١٢، ١١٣، ١١٤

سورة الحج

٦٥ ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ ١٦٢

سورة المؤمنون

١٥، ١٦ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ..... ﴾ ٢٣١

١١٥ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ..... ﴾ ١٣٨

١١٧ ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ..... ﴾ ١٥٠

سورة الفرقان

٦ ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ٦١

٣٣ ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ ٧٩

سورة العنكبوت

٥٣ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴿٥٣﴾ ... ﴾ ١٨٤

سورة لقمان

١٦ ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ .. ﴾ ١٨٥

سورة الأحزاب

٢٣ ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ..... ﴾ ٦٥

سورة سبأ

١٠-١١ ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ..... ﴾ ٢٠٠

سورة فاطر

٤١ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ..... ﴾ ١٦٠

سورة يس

٧٨ - ٧٩ ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ..... ﴾ ٢٢٨

سورة الصافات

٩١ ــ ٩٢ ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ..... ﴾ ١٩١

سورة ص

٢٧ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ... ﴾ ١٤٠

٤٢ ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ..... ﴾ ١٣١

سورة فصلت

٤٤ ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى ..... ﴾ ٢٣٥

سورة الدخان

٣٩ ﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ..... ﴾ ١٤٠

سورة الطور

٣٠ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ..... ﴾ ١٦٢

سورة الرحمن

١٠ ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ..... ﴾ ٢٤

سورة التغابن

٧ ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ..... ﴾ ٢٢٩

سورة القلم

٤٨ ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ..... ﴾ ٢٠٤

سورة المعارج

١٩ – ٢٧ ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ ..... ﴾ ١٦٣

سورة العلق

١ ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ..... ﴾ ٦٤

سورة التكاثر

٨ ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ..... ﴾ ١١١

«٢»

فهرس الأحاديث والآثار

((أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى،..)) ٦٢

((أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر، ....)) ٦١

((أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت.....)) ٦٧

((إنهن من العتاق الأول.....)) ٦٦،٧١، ٨٨

((إني استقطعت رسول الله واديًا في ديار العرب واديًا أفضل..))

((طرأ علي حزبي من القرآن.....)) ٦٦، ٧١

((كنا عند رسول الله صلى الله علية وسلم.....)) ٦٠، ٦٦، ٦٩

((كنت فى الوفد الذين اسلموا من ثقيف...)) ٧١

((ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال.....)) ٦٥

((مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم.....)) ١٢١

«٣»

فهرس التراجم

أحمد بن حنبل	٦٦
أبو الحسين أحمد بن فارس	٦٤
انس بن مالك	٦٢
البخاري:محمد بن إسماعيل	٦١
البقاعي:ـ إبراهيم بن عمر	٢٧
أبو جعفر بن الزبير	٥٢
أبو جعفر النحاس	٦٧
أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى	٣٤
أبو بكر بن العربي المالكي	٥٢
أبو بكر النيسابوري	٣٥
ابن تيمية:أحمد بن عبد الحليم	٣٦
الحاكم:ـ محمد بن عبدالله	٦٠
حذيفة بن اليمان	٦٢
ابن الحصار:أبو جعفرأحمد بن علي	٦٨
أبو داوود السجستاني	٦٦
زيد بن ثابت	٦١

الزركشي:ـ محمد بن عبدالله ٣٧
السيوطي:ـ عبد الرحمن بن محمد ٣٧
إبراهيم الشاطبي ٢٦
الشوكاني:ـ محمد بن علي ٥٤
عبد الله بن مسعود ٦٦
عز الدين بن عبد السلام ٥٤
الغزالي:ـ محمد بن محمد ٣٥
فخر الدين الرازي ٢٦
ابن قيم الجوزية ٣٦
الكرماني:ـ أبو الفضل عبد الرحمن بن محمد. ٦٨
مالك بن أنس ٦٣
مكي بن أبي طالب ٦٨
واثله بن الاسقع ٦٧

«٤»

فهرس المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن ـ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ دار الندوة الجديدة ـ د ت ـ بيروت ـ لبنان.

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم محمد بن محمد العمادي أبو السعود ـ دار إحياء التراث العربي ـ د ت – بيروت.

٣. الأساس في التفسير ـ سعيد حوىّ ـ ط١ ـ دار السلام ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ـ القاهرة ـ مصر.

٤. الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر (١٤١٢هـ) ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ ط ـ دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١.

٥. ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر ـ المؤلف: ـ مصدر الكتاب: موقع الوراق http://www.alwarraq.com

٦. أسرار ترتيب القرآن ـ جلال الدين السيوطي ـ – دراسة وتحقيق عبد القارد عطاء ـ بلا تاريخ ـ دار الاعتصام

٧. الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الإعجاز ـ العز عبد السلام ـ ـ ط١ ـ ١٩٨٧م ـ دار البشائر الاسلاميه.

٨. الإصابة في تمييز الصحابة ـ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل الشافعي العسقلاني ـ (١٤٢١هـ ـ ١٩٩٢م) ـ دار الجبل بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى.

٩. أصوال الفقه الإسلامي ـ وهبه الزحيلي ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ لبنان.

١٠. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ـ محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي ـ (١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م) ـ دار الفكر ـ بيروت – لبنان
١١. إعجاز القرآن ـ ابوبكر الباقلاني ـ شرح وتعليق محمد عبد ا لمنعم خفاجي ـ بلا تاريخ – مطبعة محمد صبيح- مصر
١٢. نسخة أخرى ـ المكتبة التجارية الكبرى- مصر- ط٨-١٣٨٩هـ
١٣. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعي ـ ط٨-١٣٨٩هـ ـ المكتبة التجارية الكبرى- مصر.
١٤. نسخة أخرى ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م
١٥. إعجاز القرآن وعلم المعاني ـ عمر الملا حويش ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت.
١٦. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ـ خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين- ط٥–١٩٨٠م - بيروت ـ لبنان.
١٧. الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير ـ عبدا لغفار عبدالرحيم ـ المركز العربي للثقافة والعلوم ـ د ت.
١٨. ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ البيضاوي ـ دار صادر ـ ط١ـ ٢٠٠١م ـ بيروت.
١٩. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ـ جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائر ـ مكتبة العلوم والحكم ـ ط٥ـ (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) ـ المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية.
٢٠. البدرالطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع ـ الشوكاني ـ ط ـ دار السعادة[١٣٤٨هـ]- القاهرة- مصر.
٢١. بحر العلوم ـ أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي ـ تحقيق: محمود مطرجي ـ دار الفكر – بيروت ـ.
٢٢. البحر المحيط ـ أبي حيان ـ المكتبة التجارية ـ مكة المكرمة ـ السعودية د ت.

٢٣. البحر المديد ـ أحمد بن محمد بن المهدي الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس ـ ـ دار الكتب العلمية ـ ط٢/ ٢٠٠٢ م ـ ١٤٢٣ هـ. ـ بيروت.
٢٤. البرهان في توجيه متشابه القرآن الكرماني ـ تحقيق عبد القادر عطا ـ دار النشر مجهولة.
٢٥. البرهان في علوم القرآن ـ محمد بن عبد الله الزركشي ـ ـ خرج أحاديثه وقدم له مصطفى عطا ـ د ت ـ دار القلم ـ بيروت ـ لبنان.
٢٦. بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ ـ فتحي عامر ـ ـــ منشأة المعارف ـ الإسكندرية ـــ مصر.
٢٧. بيانات الرسول ومعجزاته ـ عبد المجيد الزنداني ـ ـ ط٦ـ ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م ـ طبعه وقفية.
٢٨. تاج العروس من جواهر القاموس ـ محب الدين مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي ـ ـ تحقيق علي شيري ـ دار الفكر ـ ١٩٩٤م ـ ١٤١٤هـ ـ بيروت ـ لبنان.
٢٩. تأملات إيمانية في سورة يوسف ـ ياسر برهامي ـ دار الإيمان ـ الإسكندرية ـ مصر ـ د ت.
٣٠. التبيان في علوم القرآن ـ القصبي محمود زلط. ـ دار الأنصار ـ ط١ـ ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م ـ القاهرة ـ مصر.
٣١. التحرير والتنوير ـ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ـ دار سحنون للنشر والتوزيع ـ (١٩٩٧م) - تونس.
٣٢. التصوير الفني للقرآن ـ سيد قطب ـ د ت ـ دار المعارف – الإسكندرية – مصر.
٣٣. التفسير البياني للقران الكريم ـ عائشة عبد الرحمن ـ دار المعارف ـ ط٣ـ (١٩٨٦م) ـ مصر.
٣٤. تفسير الجلالين ـ جلال الدين محمد بن أحمد المحلي ـ ـ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ دار القلم – بيروت – لبنان.

٣٥. تفسير السراج المنير ـ محمد بن أحمد، شمس الدين الشربيني ـ دار النشر ـ الكتب العلمية ـ بيروت ـ دت.
٣٦. تفسير سورة يوسف ـ أحمد نوفل ـ دار الفرقان ـ ط٢ (١٩٩٩م) ـ عمان ـ الأردن ـ.
٣٧. تفسير سورة يوسف ـ محمد البهي ـ دار غريب ـ القاهرة ـ مصر ـ دت.
٣٨. تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ دار مكتبة الهلال ـ ط١ـ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م ـ بيروت ـ لبنان.
٣٩. التفسير القرآني للقرآن ـ عبد الكريم الخطيب ـ دار الفكر العربي ـ دت.
٤٠. تفسير القرآن المرتب منهج ميسر لليسر التربوي ـ أسعد أحمد علي ـ دار السّئوال للنشر ـ ط٣ـ تاريخ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ـ دمشق ـ سوريا.
٤١. التفسير القيم ـ ابن القيم ـ ـ جمعه محمد الندوي ـ حققه محمد الفقي ـ ط ١ـ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ دار الرائد العربي ـ بيروت ـ لبنان.
٤٢. ـ تفسير المراغي ـ أحمد المراغي ـ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الجلبي وأولاده ـ ط٦ ـ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م ـ مصر.
٤٣. . تفسير من نسمات القرآن كلمات وبيان ـ غسان حمدون ـ دار السلام ـ ط٨ـ ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٦م.
٤٤. ـ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ـ.صلاح الخالدي ـ دار النفائس ـ ١٩٩٧م ـ الأردن.
٤٥. التفسير الموضوعي في كفتي الميزان ـ عبد الجليل عبد الرحيم ـ (١٩٩٢م) ـ دار النشر مجهولة ـ عمان.
٤٦. التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه ـ ـ زياد خليل الدغامين ـ دار عمار ط١ـ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م ـ عمان ـ الأردن.
٤٧. التفسير الميسر عدد من الأساتذة تحت إشراف الدكتور: عبد الله عبد المحسن التركي ـ موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٤٨. التفسير الواضح ـ محمد محمود حجازي ـ دار التفسير للطبع والنشر ـ ١٩٩٢م ـ الزقازيق ـ مصر.
٤٩. التفسير الوسيط ـ محمد سيد طنطاوي ـ مصدر الكتاب: موقع التفاسير ـ http://www.altafsir.com.
٥٠. التفسير والمفسرون محمد حسين الذهبي ـ دار النشر مجهوله ـ دت.
٥١. تهذيب سير أعلام النبلاء ـ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ـ مؤسسة الرسالة ـ ١٤١١٣هـ ـ ١٣٧٤م ـ بيروت ـ لبنان ـ
٥٢. تهذيب التهذيب ـ الإمام شهب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ طبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ـ حيدرأباد ـ الهند ـ دت.
٥٣. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ـ أبو عبدالله عبدالرحمن السعدي ـ دار إحياء التراث العربي ـ ط٢ ـ ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م ـ بيروت ـ لبنان.
٥٤. ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ـ الطبري ـ دار الفكر ـ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م ـ بيروت ـ لبنان.
٥٥. الجامع الصحيح المختصر ـ محمد بن إسماعيل أبوعبدالله البخاري ـ تحقيق مصطفى ديب ـ دار ابن كثير ـ ط٣ ـ ١٤٠٧ه ـ ١٩٨٧م ـ بيروت.
٥٦. الجامع لأحكام القرآن ـ أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ـ دار الكتب العلمية ـ ط١ ـ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م ـ بيروت ـ لبنان.
٥٧. الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ـ ـ محمد بن فتوح الحميدي ـ ـ تحقيق: د. علي حسين البواب ـ دار ابن حزم ـ ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م ـ لبنان ـ بيروت.
٥٨. جواهر البيان في تناسب سور القرآن ـ أبو الفضل عبد الله محمد الغماري الحسني ـ مكتبة القاهرة ـ القاهرة ـ مصر ـ دت.
٥٩. حسن المدد في معرفة فن العدد ـ برهان الدين إبراهيم بن عمرحسن الجعبري تحقيق بشير الحميري ـ رسالة ماجستير.
٦٠. دراسا ت تاريخية من القرآن ـ محمد بيومي مهران ـ دار المعرفة الجامعية ـ ١٩٩٥م ـ الإسكندرية ـ مصر.

٦١. دراسات في التفسير الموضوعي ـ زاهر عوض الألمعي ـ. مطابع الفرزدق ـ مصر.
٦٢. دراسات قرآنية ـ محمد قطب ـ دار الشروق ـ ط٣ـ١٤٠٢هـ.
٦٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ الالوسي ـ دار إحياء التراث العربي ـ ط٤ـ ١٩٨٥م ـ بيروت ـ لبنان.
٦٤. زاد المسير في علم التفسير ـ عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي.ـ المكتب الإسلامي – ط٣ ١٤٠٤هـ ـ بيروت..
٦٥. السنن الكبرى ـ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ـ دار النشر مجهولة.
٦٦. سور القرآن وآياته وحروفه ونزوله ـ أبو العباس الفضل بن شاذان ـ ط١ ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.
٦٧. سير أعلام النبلاء ـ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي مؤسسة الرسالة ـ ط٨ ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ـ بيروت ـ لبنان.
٦٨. شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ أبي الفلاح عبد الحي الحنبلي ابن العماد ـ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.
٦٩. الشيخ محمد الغزالي رائد منهج التفسير الموضوعي ـ.مسعود فلوسي ـ العصر الحديث ـ دار الوفاء ـ دار الصحوة ـ ط١ـ ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م ـ مصر.
٧٠. صحيح البخاري ـ محمد بن إسماعيل البخاري ـ حققه طه عبد الرؤف سعد ـ مكتبة الإيمان ـ ١٤٢٣هـ ـ المنصورة ـ مصر.
٧١. نسخه أخرى ـ تحقيق محمد علي قطب وهشام البخاري ـ ط١ـ المكتبة العصرية ـ صيدا بيروت ـ ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
٧٢. صحيح ابن حبان ـ محمد ابن حبان ـ تحقيق شعيب الأرنؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ـ بيروت.
٧٣. صحيح مسلم ـ مسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري ـ تحقيق:محمد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ دت.

٧٤. صفوة التفاسير ـ محمد الصابوني ـ ط٥ـ بلا تاريخ ـ دار القلم ـ بيروت ـ لبنان
الظاهرة القرآنية ـ مالك بن نبي ـ ١٩٨١ م ـ ترجمة عبد الصبور شاهين ـ دار الفكر ـ دمشق.
٧٥. طبقات الحفاظ ـ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ـ دار الكتب العلمية ـ ـط١. (١٤٠٣هـ) ـ بيروت ـ لبنان
٧٦. عظات وعبرفي قصص القرآن ـ سعيد عبدالعظيم ـ دار الإيمان ـ الأسكندريه ـ مصر ـ دت.
٧٧. ـ العقائد الإسلامية والتفسير ـ محسن عبد الحميد ـ بحث ضمن كتاب مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات "تحرير فتحي ملكاويث ومحمد أبو سل (١٩٩٥) نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ عمان ـ الأردن.
٧٨. علامات الساعة ـ رفاعي سرور– دار الفرقان للتراث ـ دت.
٧٩. علوم التفسير ـ عبدالله شحاته ـ مطبعة جامعة القاهره ـ١٩٨٦م ـ مصر.
٨٠. علوم القرآن ـ عدنان زرزور ـ المكتب الإسلامي ـ ١٩٨٤م ـ دمشق ـ سوريا
٨١. نسخة أخرى ـ دار الإعلام عمان ـ الاردن ـ ط١ـ ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م
٨٢. فتح الباب في الكنى والألقاب ـ الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن إسحق بن منده الأصبهاني ـ تحقيق أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي ـ الناشر مكتبة الكوثر.
٨٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي أبو الفضل ـ دار المعرفة ـ ط ١٣٧٩هـ – بيروت.
٨٤. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ـ محمد بن علي الشوكاني ـ اعتنى به وراجع أصوله يوسف العوش ـ دار المعرفة الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٤م ـ بيروت ـ لبنان.
٨٥. فضائل القرآن ـ أحمد بن حجر العسقلاني ـ ـمراجعة وشرح وتقديم:ـ السيد الجميلي ـ دار الهلال ـ ط١ـ ١٩٨٦م ـ بيروت ـ لبنان.
٨٦. في رحاب القرآن ـ إبراهيم سيد درويش ـ دار ضياء ـ (٢٠٠٢م) ـ عمان ـ الأردن.

٨٧. في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ ط٥ـ ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧ م ـ دار النشر مجهوله.
٨٨. في معجم المؤلفين ـ عمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرسالة ـ ١٤١٠هـ-١٩٩٣م ـ بيروت.
٨٩. فوت الوفيات والذيل عليها ـ محمد بن شاكر الكتبي ـ ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت.
٩٠. القاموس المحيط ـ مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ـ ـ إعداد وتقديم محمد عبدالرحمن المرعشلي ـ دار إحياء التراث العربي – ط٢ـ ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٩١. القرآن الكريم تاريخه وآدابه ـ إبراهيم علي عمر ـ مكتبة الفلاح ـ ط١ـ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م ـ الكويت.
٩٢. ـ القرآن والكون من الانفجار العظيم إلى الانسحاق العظيم ـ أسامة الخضر ـ المكتبة العصرية ـ ط١ـ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م ـ بيروت ـ لبنان.
٩٣. قصص الأنبياء ـ إسماعيل بن عمر ابن كثير ـ حققه وعلق عليه عادل أبو العباس ـ مكتبة دار القرآن ـ القاهرة ـ مصر ـ دت.
٩٤. القصة في القرآن الكريم. ـ إبراهيم الصعبي ـ الخصائص والدلالات ـ دار النشر مجهوله ـ دت.
٩٥. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ محمود بن عمر الزمخشري ـ ـ رتبه وضبطه وصححه ـ محمد عبد السلام شاهين ـ دار الكتب العالمية ـ بيروت ـ ط٣ـ ٢٠٠٣ـ١٤٢٤هـ ـ لبنان.
٩٦. الكشف والبيان ـ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري ـ ـ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م ـ تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور ـ مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان.
٩٧. كيف نتعامل مع القرآن في مدارسة أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنه ـ محمد الغزالي ـ ط١ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ مصر.

٩٨. لباب التأويل في معاني التنزيل ـ علاء الدين علي بن محمد البغدادي الخازن ـ دار الفكر ـ دت.
٩٩. لطائف قرآنيه ـ صلاح الخالدي ـ دار القرآن ـ ط١ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ـ دمشق ـ سوريا.
١٠٠. لسان العرب ـ جمال الدين محمد بن مكرم ـ دار صادر ـ بيروت ـ لبنان ـ دت.
١٠١. من بلاغة القرآن ـ أحمد بدوي ـ دار النهضة ـ مصر ـ دت.
١٠٢. مباحث في التفسير الموضوعي ـ مصطفى مسلم ـ دار القلم ـ ط٤ـ ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م ـ دمشق.
١٠٣. مباحث في علوم القرآن ـ صبحي الصالح ـ دار العلم ـ بيروت ـ لبنان ـ دت.
١٠٤. مباحث في علوم القرآن ـ مناع القطان ـ مؤسسة الرسالة ـ ط٢٩ـ ١٤٢٦هـ ـ ١٩٩٦م ـ بيروت ـ لبنان.
١٠٥. محاسن التأويل ـ محمد جمال الدين القاسمي ـ دار احيا ءالكتب العربيه ـ د ت.
١٠٦. محاورات الأنبياء لأقومهم في القرآن الكريم ـ نجيب السودي ـ إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ـ ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م ـ صنعاء.
١٠٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية الأندلسي ـ تحقيق المجلس العلمي بمكناس ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ الهند.
١٠٨. المحكم والمحيط الأعظم ـ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ـ تحقيق عبد الحميد هنداوي ـ دار الكتب العلمية ـ ٢٠٠٠م ـ بيروت.
١٠٩. مختار الصحاح ـ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي دار الكتاب العربي ـ ـ ط١ـ ١٩٦٧م ـ بيروت.
١١٠. مختصر سنن ابي داوود ـ المنذري ـ دار المعرفة ـ دت.
١١١. مدخل الى التفسير الموضوعي ـ عبدالستار سعيد ـ دار الطباعة والنشر الإسلاميه ـ ١٩٨٠م ـ القاهره ـ مصر.

١١٢. المدخل إلى الدراسات القرآنية مبادئ تدبر القرآن والانتفاع به ـ أبو الحسن الندوي ـ مؤسسة الرسالة ـ ط١ ـ ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م ـ بيروت ـ لبنان.
١١٣. مدخل إلى الظلال ـ.صلاح عبدالفتاح الخالدي ـ دار المنارة- ١٤٠٦هـ - جدة ـ السعودية.
١١٤. مدخل إلى القرآن الكريم ـ محمد عبدالله دراز ـ دار القلم ـ ١٩٨٤م – الكويت
١١٥. معالم التنزيل ـ أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي ـ دار الفكر ـ دت.
١١٦. مستدرك الحاكم ـ محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ـ مصطفى عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ١٤٤١هـ ـ ١٩٩٠م ـ بيروت.
١١٧. ـ مسند احمد بن حنبل ـ أحمد بن حنبل ـ مؤسسة قرطبة ـ القاهرة ـ د ت.
١١٨. نسخة أخرى ـ١٤١٤هـ ـ١٩٩٣م ـ تحقيق شعيب الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
١١٩. مسند أبو داود الطيالسي ـ سليمان بن داود الفارسي البصري الطيالسي ـ دار المعرفة ـ بيروت.
١٢٠. المصباح المنير ـ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ـ تصحيح مصطفى السقا ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ١٣٦٩م ـ مصر
١٢١. مصحف دار الصحابة في تناسب وتناسق الآيات ـ مجدي فتحي السيد ـ ـ ط١ ـ ٢٠٠٦م.
١٢٢. مصنف عبد الرزاق ـ أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ـ ١٤٠٣هـ ـ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي ـ المكتب الإسلامي – بيروت.
١٢٣. المعجم الأوسط ـ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ـ تحقيق: طارق بن عوض الحسني ـ دار الحرمين ـ القاهرة ـ ١٤١٥هـ
١٢٤. المعجم الكبير ـ سليمان بن أحمد الطبراني ـ ـ تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي ـ مكتبة العلوم والحكم ـ سوريا ـ ١٤٠٤هـ.

١٢٥. معجم مقاييس اللغة ـ ابن فارس ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار الفكر المصورة عن الطبعة المصرية.
١٢٦. المعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ـ دار إحياءالتراث ـ بيروت ـ لبنان ـ دت.
١٢٧. مفاتيح الغيب ـ محمد بن عمر الرازي ـ ـ١٩٨١م ـ دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان.
١٢٨. نسخة أخرى ـ دار الكتب العالمية ـ بيروت لبنان ـ ط١ ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.
١٢٩. المفردات في غريب القرآن ـ الحسين بن محمد المعروف الراغب الأصفهاني ـ دار المعرفه ـ بيروت ـ لبنان ـ د ت.
١٣٠. نسخه أخرى ـ مكتبة الانجلو مصرية ـ بلا تاريخ.
١٣١. المقتطف من عيون التفاسير ـ مصطفى المنصوري ـ حققه وإخرج أحاديثه محمد علي الصابوني ـ دار السلام ـ ط١ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م ـ ـ القاهرة ـ مصر.
١٣٢. مقدمة في علم التفسير عبدالحي الفرماوي ـ ـ دار الكتب المصرية ـ ط٦ ـ ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
١٣٣. المنار والأزهر ـ محمد رشيد رضا ـ مطبعة المنار ـ القاهرة ـ ١٣٥٢هـ ـ مصر.
١٣٤. المناهج الجديدة ـ عبدالغني الراجحي ـ دار النشر مجهوله ـ د ت.
١٣٥. من أسرار القرآن ـ علي محمد العماري ـ ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ط١ ـ ٢٠٠١م ـ مصر.
١٣٦. من أسرار وإعجاز القرآن الكريم ـ محمد أديب النابلسي ـ مكتبة دار الصفا ـ ط١ ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م ـ دمشق.
١٣٧. مناهل العرفان في علوم القرآن محمد عبدا لعظيم الزرقاني ـ دت ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ مصر.

١٣٨. نسخه أخرى دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ـ ١٩٩٦م ـ ـ تحقيق مكتب البحوث والدراسات.
١٣٩. المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ محمود حمدي زقزوق ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ـ ط١١ـ ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م ـ مصر.
١٤٠. منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم ـ عبدالله محمود شحاته ـ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (٤٤) نشر الرسائل الجامعية ـ ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م ـ القاهرة ـ مصر.
١٤١. منهج ابن القيم في التفسير ـ محمد السنباطي ـ دار القلم ـ ١٩٨٠م ـــ الكويت.
١٤٢. ٢٠٠٦م ـ دار الصحابة للتراث بطنطا ـ مصر
١٤٣. الموافقات في أصوال الشريعة ـ أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي ـ بشرح عبد الله دراز وضبط وترقيم محمد عبد الله دراز ـ دار المعارف ـ بيروت ـ لبنان.د ت.
١٤٤. موسوعة القرآن العظيم ـ عبد المنعم الحنفي ـ (٢٠٠٤م) ـ مكتبة مدبولي ـ مصر ـ ط١.
١٤٥. الموسوعة القرآنية المتخصصة ـ إشراف وتقديم أ.د. ـ محمود حميد زقزوق ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م ـ القاهره.
١٤٦. النبأ العظيم ـ محمد عبدالله دراز - ١٩٨٤م ـ دار القلم ـ الكويت.
١٤٧. ـ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ـ عبدالحميد الفراهي ـ الدائرة الحميدية- ـ ط١ـ ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م الهند.
١٤٨. نظرية المعنى في النقد العربي ـ مصطفى ناصف ـ دار القلم ـ (١٩٦٥م) ـ مصر.
١٤٩. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ـ البقاعي ـ مطبعة المعارف العثمانية ـ (١٣٩٩) ـ الهند.

١٥٠. النظم الفني في القرآن ـ عبدالمتعال الصعيدي– مكتبة الآداب – المطبعة النموذجية – مصر ـ د ت.
١٥١. النهاية في غريب الحديث والأثر ـ حميد الدين المبارك محمد المعروف بابن الأثير الجزري ـ دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان ـ دت.
١٥٢. وافي الوفيات ـ صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي ـ تحقيق أحمد الارناؤوط وتركي مصطفى ـ دار احياء التراث ـ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م ـ بيروت
١٥٣. الوحدة الفنية في القصة القرآنية ـ محمد الدالي ـ ط١ـ ١٤١٤هـ ـ١٩٩٣م ـ دارالنشر مجهوله.
١٥٤. الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ـ محمد حسن باجودة ـ تهامة(١٩٨٣) جدة ـ السعوديه.
١٥٥. ـ ا لوحدة الموضوعية في القرآن ـ محمد محمود حجازي ـ مطبعة المدني – ١٩٧٠م ـ القاهرة.
١٥٦. . الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم والسور القرآنية ـ محمود أحمد سعيد الأطرش ـ دار الإيمان ـ ط١ـ ٢٠٠٨م ـ دار القيمة ـ الإسكندرية ـ مصر.
١٥٧. وفيات الأعيان ـ ابن خلكان ـ حققه إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت.